المآسي المروّعة

للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه

تأليف
باقر شريف القرشي

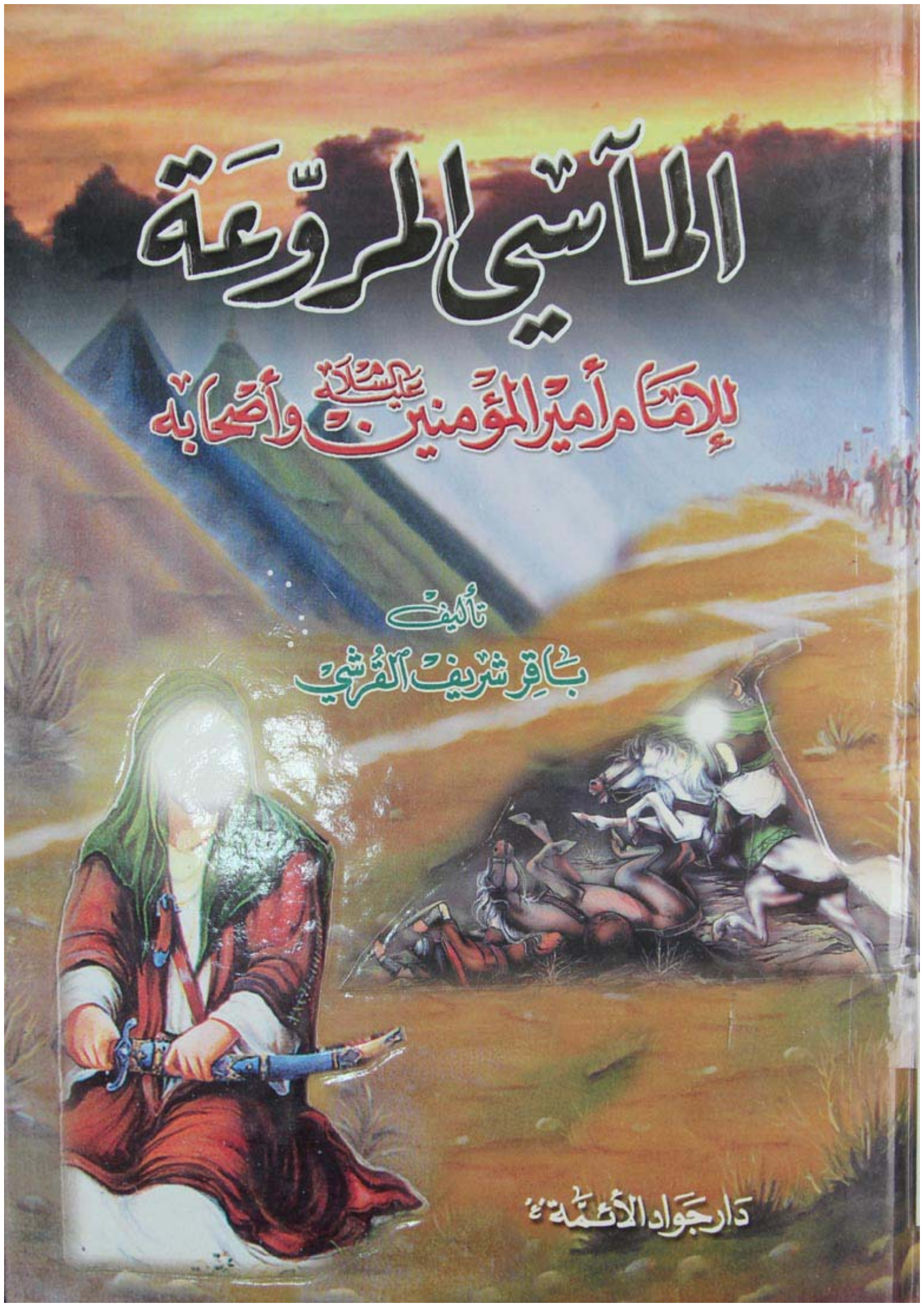

دار جواد الأئمة

المآسي المروعة

للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار جواد الأئمة
بيروت - لبنان
ت - ١٣٧٣٧٣ /٠٣

المآسي المروّعة

للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه

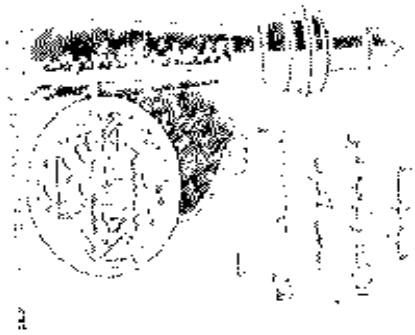

تأليف

باقر شريف القرشي

دار جواد الأئمة (ع)

بيروت - لبنان

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢٠٧٩
التاريخ /

النجف الأشرف

الإهداء

إلى وصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه

إلى المظلوم الأوّل في دنيا الإسلام

عليّ بن أبي طالب عليه السلام

أرفع هذا المجهود عمّا عاناه وشيعته من

الظلم والارهاب

راجياً أن أحظى بالقبول يوم ألقى الله

المؤلّف

تقديم

١

أمّا أهل البيت عليهم السلام فهم حضنة الإسلام، ومصابيحه، وكنوز حكمته، ورموز حضارته، قد استمدّوا أرصدتهم العلميّة والروحيّة من رسول الله صلى الله عليه وآله الذي فجّر ينابيع العلم والحكمة في الأرض، لا يضارعهم أي أحد فيما منحهم الله تعالى من العلم وطهارة النفس، وسموّ الذات. لقد أقام النبيّ صلى الله عليه وآله أهل بيته أعلاماً لأمّته، ودعاة حقّ لنشر رسالته، وإشاعة قيمه وأهدافه.

٢

ولم يكن تبنّي النبيّ صلى الله عليه وآله لأهل بيته ناشئاً عن عاطفة ليبقون في أروقة الحكم، وينعمون في خيرات البلاد وغطرسة السلطة، كما يفعل ذلك عشّاق الحكم والسلطان، كبني أميّة وبني العبّاس، فإنّ ذلك بعيد عن مركز النبوّة، ومستحيل على مكانة النبيّ العظيم الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، ومنقذاً للبشريّة من مآثم الحياة.

إنّما أقام النبيّ صلى الله عليه وآله أهل بيته ولاة وحكّاماً لأمّته لما يتمتّعون به من نكران الذات، والزهد في الدنيا، ورقّة القلب، وسعة العلم، وغير ذلك من محاسن الصفات ومعالي الأخلاق.

والشيء المؤكّد الذي لا يخالجه شكّ أو ريب أنّ النبيّ ﷺ لم يفارق الحياة ويلتحق بالرفيق الأعلى حتّى أقام سيّد العترة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده، وهادياً لأمّته، ومرشداً وأباً روحيّاً لها؛ لأنّه ليس في أهل بيته ولا في أصحابه من يضارعه في مواهبه وعبقرياته وجهاده والتزامه بحرفيّة الإسلام، فقد غذّاه النبيّ ﷺ بمقوّماته النفسيّة مذ كان صبيّاً يافعاً فتيّاً، فقد تربّى في كنف مودّته، وفي ذرى عطفه، وهو أوّل من سبق إلى الإيمان برسالته، وصدّق دعوته، وسار على منهاجه، ووقف إلى جانبه، فحماه من كيد أعدائه، ولازمه في جميع المواقف والمشاهد، وذبّ عنه في أحلك الظروف وأقساها محنة وبلاءً، كما أنّه أوّل من عرف الرسالة الإسلاميّة بجميع أبعادها ومخطّطاتها، فكيف لا ينتخبه النبيّ ﷺ مبلّغاً لرسالته من بعده، وإماماً لأمّته.

ونظرة سريعة في كتاب الله تعالى تحكي بصورة واضحة مدى أهمّية أهل البيت عليهم السلام عند الله تعالى، فقد زكّاهم من الفتن، وطهّرهم من الرجس، وعصمهم من الزيغ ومآثم الحياة، كما أعلنت ذلك آية التطهير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]. كما جعل تعالى مودّتهم أجراً لعبده ورسوله محمّد ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[2].

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

(٢) الشورى ٤٢: ٢٣.

إنّ أجر الرسول ﷺ الذي برّ بدين أُمّته ودنياها ، أن رفعت رؤوس أبنائه على الرماح وبناته سبايا يطاف بهنّ في الأقطار والأمصار ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

كما كان سيّد العترة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نفس رسول الله ﷺ كما نطقت بذلك آية المباهلة .

قال تعالى : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾[1] .

إلى غير ذلك مع الآيات البيّنات التي نزلت في آل البيت ، وقد أحصاها بعض الأعلام بثلثمائة آية ، ومن هذه الأهمّية البالغة لهم عند الله تعالى كيف لا يجعلهم النبيّ ﷺ هداة لأُمّته ، وأُمناءً على أداء رسالته ، وحكّاماً لأُمّته ؟

٥

وليس من الحكمة في شيء أن يهمل النبيّ ﷺ أمر أُمّته من بعده ويتركها هائمة في الفوضى والضلال يتحكّم فيها من حكم عليه بالهجر ، ويجعلها فريسة للمنافقين الذين يتربّصون بالإسلام الفرص ، ويكيدون للأُمّة في غلس الليل وفي وضح النهار ، أمثال أبي سفيان ، وسمرة بن جندب ، والمغيرة بن شعبة ، وابن العاص ، ومروان بن الحكم ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وغيرهم من الذين اسودّت ضمائرهم وعشعش الشيطان في أدمغتهم ، وقد نزلت فيهم سورة من كتاب الله تعالى ، وهي سورة المنافقون ، كما نزلت فيهم آيات متفرّقة من كتاب الله العزيز ، وهي تحذّر المسلمين من الاختلاط بهم ، وإبعادهم عن التدخّل في شؤونهم ، وجعلهم بمعزل عن الواقع السياسي ، ومضافاً لذلك فإنّ الكثير ممّن دخلوا في الإسلام منهم كانوا غارقين هم وآباؤهم وأُمّهاتهم في

---

(١) آل عمران ٣ : ٦١ .

عبادة الأوثان والأصنام ، ولم يكن إسلام الكثير منهم ناجماً عن وعي ومعرفة بتعاليم الإسلام وقيمه وأهدافه ، فهل من السداد أن يهمل الرسول الأعظم ﷺ أمر أمّته ويجعلها فريسة بأيدي العابثين ، ولا يقيم لها الرائد الذي يحميها من كيد المنافقين والضالّين .

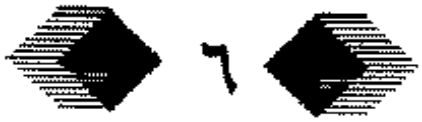

إنّ أدنى تأمّل في الأحداث السياسيّه التي رافقت النبيّ ﷺ في المراحل الأخيرة من حياته يتّضح منها الحال ، وينكشف عنها الستار ، هو أنّ النبيّ ﷺ قد أقام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خليفة من بعده ، وإماماً وقائداً لمسيرة أمّته ، وأنّه قلّده وسام الخلافة قبل رحيله إلى حظيرة القدس بأيّام في غدير خمّ ، وأمر المسلمين بالبيعة له ، وقد بايعه بالخلافة والإمرة الصحابة أجمعون اكتعون ، وهنّأه بعضهم قائلاً : بخ بخ ، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة ، ولكنّ القوم خدعتهم الدنيا ، وراقهم زبرجها ـ على حدّ تعبير الإمام ـ فأقصوه عن الحكم ، واستولوا على السلطة ، وجعلوه بمعزل عن الحياة السياسيّة والشؤون الاجتماعيّة ، وليس في هذا القول أي تعدٍّ أو مهاجمة لأي أحد من الصحابة ، وإنّما هو الواقع الذي يحكيه التاريخ ويرويه المؤرّخون .

وكان من النتائج المباشرة لفصل الخلافة عن أهل البيت سفن النجاة ، وكنوز العلم والحكمة في دنيا الإسلام أن صارت الخلافة الإسلاميّة ألعوبة بأيدي الأمويّين والعبّاسيّين من بعدهم ، الذين لا يرجون لله وقاراً ، فكذّبوا الصادق وصدّقوا الكاذب ، وآثروا بفيء المسلمين الماجنين ، وهواة الطرب والخلاعة ، وأنفقوا مال الله تعالى بسخاء على لياليهم الحمراء ، التي حفلت بجميع ألوان الموبقات والمنكرات ، وعانت الأمّة في أيّامهم السود صنوفاً مرهقة من الذلّ والعبوديّة والفقر ، وقد خولف في ذلك

ما أراده الله تعالى من العزّة والكرامة والرفاهيّة والرخاء لهذه الأُمّة ، وأن تعيش في ظلّ نظام رفيع مستقرّ تقام فيه العدالة الاجتماعيّة ، وتسود فيه قوى الخير ، ويأمن المظلومون من عباد الله ، وتقام فيه المعطّلة من حدود الله تعالى .

وأدّى فصل الخلافة عن أهل بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة إلى أفدح الخسائر التي مني بها المسلمون في جميع الأحقاب والآباد ، فقد أُزهقت الأرواح ، وسُفكت الدماء في الحروب الطاحنة في معركة الجمل التي قادتها عائشة لإسقاط حكومة الإمام الذي هو نفس النبيّ ﷺ وأبو سبطيه ، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، قادتها إلى ذلك عواطفها المترعة بالأحقاد والأضغان على الإمام وزوجته سيّدة نساء العالمين زهراء الرسول ﷺ ، ومن بين تلك الحروب التي أُريقت فيها أنهار من دماء المسلمين حرب صفّين ، التي قادها الذئب الجاهلي معاوية بن أبي سفيان مطالباً بدم عثمان بن عفّان شيخ الأمويّين ، وقد اتّخذ دمه ورقة رابحة لعصيانه المسلّح ضدّ حكومة المضطهدين والمحرومين والفقراء التي يمثّلها الإمام .

ومن المؤكّد أنّه لم يكن يهتمّ بعثمان ، فقد استجار به وجيشه قريب منه ، فلم يسعفه ، ولم يستجب له ، ولمّا استقرّ له الملك والسلطان لم يذكر عثمان ولا ذكر من أُراق دمه ، ومن تلك المجازر الرهيبة التي سفكت فيها الدماء الزكية مجزرة كربلاء التي أُريقت فيها دماء العترة الطاهرة التي أُرادت أن تقيم في الشرق العربي حكومة القرآن ، فأجهز عليها يزيد حفيد أبي سفيان فأبادها جيشه ، وحمل الرؤوس الكريمة على الرماح ، ومعها العائلة النبويّة ، يطاف بها في الأقطار والأمصار سبايا لإظهار قدرته وتشفّيه من النبيّ ﷺ بإبادته لعترته وانتقامه لقتلى بدر .

وعلى أي حال ، فهناك عشرات الثورات التي سُفكت فيها دماء المسلمين ، كثورة

المدينة التي انتهكت فيها كرامة النبيّ ﷺ في عاصمته ، فقد أباحها الجيش الأموي ، فقد قتل آلاف المدنيّين ، ونهب أموالهم ، واستباح أعراضهم ، وعادت مدينة الرسول ﷺ واحة موحشة ، إلى غير ذلك من المجازر التي أغرقت البلاد في المحن والخطوب ، وأشاعت فيها الثكل والحزن والحداد ، وهي من دون شكّ ناجمة من فصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام .

٩

وشيء بالغ الخطورة كان من النتائج المباشرة لفصل الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام ، وهو انقسام المسلمين ، وتعدّد مذاهبهم ، ولم يعد المسلمون كما أرادهم الله تعالى صفّاً واحداً متّحدين في عواطفهم ومشاعرهم كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً .. فطائفة من المسلمين تابعت النبيّ ﷺ فيما أمر به من التمسّك بعترته ، فأخذت معالم دينها منها ، وهي الشيعة ، فقد دانت بالوفاء للأئمّة الطاهرين ، وعقدت لهم المحبّة والمودّة في دخائل نفوسهم وضمائرهم ، وبقيّة المسلمين تابعوا الخلفاء ، واتّبعوا مناهجهم ، وأخذوا منهم أحكام دينهم ، واعتبروا ما أثر عنهم من السنّة التي يجب التعبّد بها .

وعلى أي حال ، فالصراع بين المذاهب الإسلاميّة ، وشيوع الفتن بينهم كان من نتائج غصب خلافة أهل البيت عليهم السلام .

١٠

إنّ من أقسى المحن وأعظمها بلاءً في عملية عزل الخلافة عن الأسرة النبويّة هي ما عانته هذه الأسرة المعظّمة من الكوارث والخطوب التي تعصف بالصبر ، فقد انتهكت الحكومات القائمة في عصورهم حرماتهم ، وقابلتهم بمزيد من الاضطهاد والتنكيل ، خصوصاً في أيّام الحكم الأموي والعبّاسي ، فقد عمد ملوكهم إلى إبادة ذرّيّة

رسول الله ﷺ ، وإنزال أقسى العقوبات الصارمة بهم ، ولم يعد أي ظلّ للأمن عندهم ، فكانت السلطات تطاردهم ، وتفتّش عنهم حتّى في القرى والأرياف لإلقاء القبض عليهم ؛ وإعدامهم أو زجّهم في ظلمات السجون ، وقال أحد شعراء العلويّين بألم وحزن :

يَـأمَنُ الطَّـيرُ والمَـقامُ ولا يَأمنُ آلُ الرَّسولِ عندَ المَقامِ

ومعنى هذا الشعر أنّ الطير والمقيمين في حرم البيت الحرام في أمن وسلام ، ولكنّ السادة العلويّين لا أمان لهم ، وإن لاذوا بمقام إبراهيم واستجاروا به .

١١

ولم تقتصر المحن الشاقّة والبلاء العارم على السادَة العلويّين ، وإنّما شملت شيعتهم ومحبّيهم ، فقد سملت منهم العيون ، وقُطّعت الأيدي والأرجل ، وحرموا من أرزاقهم ، وهدّمت دورهم ، وردّت شهادتهم في المحاكم الرسميّة ، وذلك في أيّام معاوية بن أبي سفيان ، الذي لقّبوه بكسرى العرب ، فقد عمد إلى هذه الإجراءات القاسية زياد بن أبيه ولاقى عليها كلّ دعم من حكومة دمشق .

واشتدّ البلاء ، وعظمت المحن على الشيعة في أيّام الحكم العبّاسي الذي انتهك جميع حرمات الله تعالى ، وقد صوّر الطغرائي تلك المحن بقوله :

ومتى تَولّى آلَ أَحمَدَ مُسلِمٌ قَتَلوهُ أَو وَصَـموهُ بِـالإِلحادِ

حكى هذا الشعر أنّ من يتولّى أهل البيت ويخلص لهم في المودّة والحبّ ، فإنّ الحكم القائم يعمد إمّا إلى تصفيته جسديّاً أو يحكم عليه بالإلحاد والمروق من الدين .

١٢

وشيء مهمّ جدّاً في عصر النهضة الإسلاميّة هو دراسة التاريخ الإسلامي دراسة

موضوعيّة وشاملة ، وبعيدة عن التيّارات المذهبيّة ، فإنّ ذلك ـ فيما نحسب ـ يعود على الأُمّة بالخير العميم ، ويوجب لها المزيد من الانفتاح والتطوّر ، وجمع الكلمة .

من المؤكّد أنّ دراسة التاريخ الإسلامي ، والتأمّل في مجريات الأحداث ليس ـ كما يظنّ البعض ـ فيه حسّاسيّة وخدش لوحدة الأُمّة وتماسكها ، فإنّ هذا الرأي سطحي ، وليس بوثيق للغاية ، فإنّ النظر إلى ما عانته الأُمّة في جميع فترات تاريخها من الأزمات والمصاعب والخطوب ، إنما هو لإهمال دراسة التاريخ الإسلامي في عصوره الأُولى ، والبناء على الصحّة على ما جرى فيه من الأحداث الجسام .

إنّ الذي يضرّ ولا ينفع ، ويفرّق ولا يجمع ، هو الكذب والافتعال والتدليس ، كالذي حدث في أيّام الأمويّين والعبّاسيّين ، فقد عمد أولئك الملوك لدعم سياساتهم القائمة على الظلم والجور والاستبداد إلى الاعتماد على الوضّاعين ، فافتعلوا أكواماً من الأخبار نسبوها إلى النبيّ ﷺ ممّا يتّفق مع سياستهم ، وما أحدثوه من الأعمال المجافية لروح الإسلام وهديه .

ومن المؤسف جدّاً أنّ كثيراً من تلك الأخبار قد دوّنت في الصحاح والسنن ، ولم يلتفت الأعلام إلى وضعها ، وقد انبرت كوكبة من ذوي الأنظار الصائبة إلى التدليل على وضعها فيما ألّفوه من الكتب في موضوعات الحديث .

١٣

تلقي هذه الدراسة الأضواء على المحن الشاقّة والعسيرة التي عاناها الإمام وأبناؤه من أعدائهم وخصومهم الذين لم يألوا جهداً في ظلمهم وقهرهم من أجل السلطان الذي اختلسوه بالخداع والتضليل تارة ، وبقوّة السلاح أُخرى ، ولم يملكوا أيّة صفة كريمة حتّى يستحقّون هذا المركز الخطير ، فكان الحكم عندهم مغنماً ، والسواد بستان لهم ، كما يقول ابن العاص ، وتلاعبوا بمقدّرات الأُمّة وثرواتها ، يهبون لمن شاءوا ،

ويحرمون من شاءوا ، غير مقيّدين بكتاب الله تعالى ولا بسنّة نبيّه ، ولا بأي عرف من الأعراف الاجتماعيّة ، فقتلوا الأبرياء ، ونهبوا أموال الرعيّة ، وعاثوا في الأرض فساداً ، وهذه السمات بارزة بشكل سافر عند معظم ملوك بني أميّة وبني العبّاس حسبما ذكره الرواة والمؤرّخون .

ولم تكن هناك جبهة معارضة لسياسة أولئك الملوك سوى أهل البيت عليهم السلام وأعلام شيعتهم الذين تبنّوا حقوق المظلومين والمحرومين ، فأعلنوا نقمتهم وسخطهم على أولئك الخونة الذين استهانوا بقيم الأمّة ومكوّناتها .

وقد استشهدوا سلام الله عليهم في ميادين الشرف والكرامة ، ورفعت رؤوس بعضهم على الرماح وهي تُضيء الطريق للأحرار والمصلحين لتحرير أوطانهم وأمّتهم من الضالّين والمستبدّين .

ويجب أن تدرس سيرة هؤلاء العظماء دعاة الإصلاح الاجتماعي الذين ثاروا من أجل كرامة الإنسان وحقّه في الحياة .

١٤

وليس في هذه الدراسة عن مآسي أهل البيت عليهم السلام إلّا إبراز القيم الأصيلة والمُثل العليا التي تميّزوا بها ، والتي يجب أن يتغذّى بها المسلمون ، وتكون من مناهج حياتهم ، ويكونون على معرفة تامّة بالذوات العظيمة التي أقامت صروح الإسلام بدمائها وأرواحها ، هؤلاء بناة التاريخ الإسلامي الذين حفلت سيرتهم بجميع مقوّمات الارتقاء والنهوض للعالم الإسلامي .

ويجب أن نتبنّاهم باعتزاز وفخر ، ونربّي أجيالنا بمعرفتهم وتعاليمهم ، ونجعلهم القادة لنا ، لا المخرّبين أمثال معاوية وابن العاص وابن شعبة وأمثالهم من الجناة على الإسلام والمسلمين .

وعلى أي حال ، فإنّ هذه الدراسة وما ألّفته من موسوعة أهل البيت سلام الله عليهم لا أبغي بها سوى خدمة الإسلام والتقرّب إلى الله تعالى .

إنّه ولي القصد والتوفيق

مكتبة الإمام الحسن العامة
النجف الأشرف

باقر شريف القرشي
١١ / ذي الحجّة / ١٤٢٥هـ

المآسي المروّعة

للإمام أمير المؤمنين عليه السلام

وأصحابه

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أوّل مهضوم ومقهور ومعتدى عليه في الإسلام، فقد تتابعت عليه الأزمات والخطوب ينبع بعضها بعضاً حتّى بعد وفاته، ومن بين الرزايا التي مُني بها:

وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله

وأقسى رزء روّع به الإمام وفاة أخيه ومربّيه رسول الله صلى الله عليه وآله الذي عاش في ذرى عطفه وفي كنف مودّته، وأفاض عليه حنانه ومودّته منذ كان صبيّاً يافعاً، وقد أعرب الإمام عن مدى حزنه عليه حينما وضعه على حافّة المغتسل وهو يذرف أحرّ الدموع قائلاً:

«بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً. وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً»[1].

أرأيتم مدى شجاه وحزنه وأليم مصابه؟ وحينما واراه في مثواه الأخير وقف

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٢٥٥.

على حافّة القبر وهو يروّي ثراه بدموع عينيه قائلاً:

«إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ، وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ»[١].

ومنذ ذلك اليوم الخالد في دنيا الأحزان انصبّت عليه النكبات والرزايا، فقد تلبّدت عليه الأجواء السياسيّة، واضطربت الأُمور، وانقلبت المقاييس، وأُقبرت الحقائق، ومنى النّاس لعمر الله بخبط وشماس وتلوّن واعتراض ـ على حدّ تعبير الإمام ـ ومن تلك المحن الشافّة:

انقلاب المسلمين على الأعقاب

وقد تحدّث القرآن الكريم عن الحدث المهم الذي قلب الأوضاع، وغيّر القلوب، وحوّل النفوس من الإيمان إلى الضلال، وهو ما حدث بعد وفاة النبيّ ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٢].

إنّه الانقلاب على الأعقاب، والتدمير الشامل لحياة المسلمين فكريّاً وعقائديّاً.

إنّه الانقسام المدمّر للمجتمع الإسلامي، وتفلّل وحدته، وانعدام روابطه الاجتماعيّة والسياسيّة.

---

(١) نهج البلاغة ٣: ٢٢٤.

(٢) آل عمران ٣: ١٤٤.

مؤتمر السقيفة

عقد مؤتمر السقيفة في جوّ رهيب جرت فيه أحداث جسام عرض لها الرواة والمؤرّخون ، وقد استطاع أبو بكر بقابليّاته الدبلوماسيّة ولباقته أن يفوز بالحكم ، وأقصى الإمام عنه بعد أن قلّده النبيّ الخلافة في غدير خم ، وكان هذا من أعظم ما مني به الإمام من النكبات ، فقد صبّت عليه الخطوب والكوارث ، وحرمت الأُمّة من مواهبه وعبقريّاته ، والانتهال من نمير علومه ومحاسن صفاته ، كما حرمت الأجيال الصاعدة من قيادة هذا العملاق العظيم ، صانع التأريخ ، ورائد العدالة الاجتماعيّة في دنيا الإسلام .

امتناع الإمام من بيعة أبي بكر

وكان من الطبيعي أن يمتنع الإمام عن بيعة أبي بكر ، ويقف بشدّة وصرامة ضدّه .

كيف يتخلّى عن منصبه الذي أقامه الله تعالى فيه ورسوله ؟

كيف يتنازل عن هذا الحقّ وهو للأُمّة قيادة وله ولاية عليها ؟

هل الخلافة حقّ خاصّ للإمام حتّى يصحّ أن يهبه ويعطيه لمن يشاء ؟

إنّ الخلافة الإسلاميّة بمفهومها الخاصّ نيابة عن النبيّ ﷺ لإقامة العدل الاجتماعي بين النّاس ، وتهذيب سلوكهم ، وهي أمر تعيّني من قِبل الله تعالى غير قابلة للجعل والأخذ والعطاء كالنبوّة حسبما أقام عليه المتكلّمون من الشيعة جمهرة من الأدلّة الحاسمة .

إنّ محلّ الإمام من الخلافة محلّ القطب من الرحى ، ينحدر عنه السيل ، ولا يرقى إليه الطير ـ كما يقول عليه السلام ـ وذلك لعظيم شأنه ، وسموّ مقامه ، وليس في الأسرة النبويّة ، ولا في الصحابة من بضارعه فيما وهبه الله تعالى من العلم والفضل وسلامة الذات .

كيف يتخلّف عن الخلافة ويكون بمعزل عن الأمّة ويحرمها من أرصدته العلميّة ، وطاقاته الفكريّة ؟

ومن المؤكّد أنّه لم يظنّ أحد من أعلام الصحابة ، ولا من سائر القوى الشعبيّة أنّ أحداً يتولّى قيادة الأمّة غير الإمام ، بل هو بالذات كان لا يظنّ أنّ أحداً يتقدّم عليه ، ويتقلّد الخلافة غيره ، فقد جاء إليه عمّه العبّاس ليبايعه قائلاً :

« يابن أخي ، امدد يدك أبايعك ، فيقول النّاس عمّ رسول الله ﷺ بايع ابن عمّ رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان . . . » .

فاستغرب الإمام كلام عمّه وقال له :

« **مَنْ يَطْلُبُ هٰذَا الْأَمْرَ غَيْرُنا . . .** »[1] .

علّق الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي على مقالة العبّاس لابن أخيه بقوله :

« **نظر العبّاس في الأمر فرأى ابن أخيه أحقّ منه بوراثة السلطان ؛ لأنه ربيب النبيّ ، وصاحب السابقة في الإسلام ، وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلّها ؛ ولأنّ النبيّ كان يدعوه أخاه حتى قالت له أمّ أيمن ذات يوم مداعبة : تدعوه أخاك وتزوّجه ابنتك ؟ ولأنّ النبي قال له :**

« **أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي** » .

وقال للمسلمين يوماً آخر : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ » ، من أجل ذلك أقبل العبّاس بعد وفاة النبيّ على ابن أخيه وقال له : ابسط يدك أبايعك . . . »[2] .

والشيء المؤكّد أنّ القوم يعرفون منزلة الإمام عند النبيّ ﷺ ، وأنّهم بايعوه بالخلافة في غدير خمّ ، مضافاً إلى ما سمعوه من النبيّ في حقّه من النصوص

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ٤ .

(٢) عليّ وبنوه : ١٩ .

المتواترة من أنّه نفسه ووصيّه ، وباب مدينة علمه ، وأنّه مع الحقّ والحقّ معه ، كلّ ذلك وأكثر منه سمعوه من النبيّ في حقّه ، ولكنّهم كتموه طمعاً بالملك والسلطان ، ورحم الله الكميت إذ قال :

تا اللهِ ما جَهِلَ الأَقوامُ مَوضِعَها لكِنَّهُمْ سَتَروا وَجْهَ الَّذي عَلِموا

إجراءات قاسية

وحينما تخلّف الإمام عن بيعة أبي بكر ورأى أنّه أحقّ بالأمر منه عمد أبو بكر إلى اتّخاذ الإجراءات المؤسفة البالغة الخطورة ضدّه ، كان منها :

أوّلاً ـ الهجوم على دار الإمام

من المصائب القاسية ، والمحن الشاقّة التي تجرّعها الإمام الهجوم على داره ومقابلته بالشدّة والعنف ، فقد أصدر أبو بكر أوامره إلى باني دولته عمر بن الخطّاب لإخراج الإمام من داره بالعنف ، وإجباره على البيعة له ، وراح عمر يشتدّ ومعه جلاوزته وشرطته ، وهو هائج غضبان حاملاً مشعلاً من النّار ، ومع جلاوزته حزمة من الحطب لإحراق بيت النبوّة ومركز الوحي ، ومعدن الإيمان ، وهجم ابن الخطّاب على الدار وهو مغيظ ، رافعاً صوته قائلاً :

« والذي نفس عمر بيده ليخرجنّ عليّ أو لأحرقنّها على من فيها » .

فعذلته طائفة ، وحذّرته أخرى من عقوبة الله تعالى قائلة له :

« إنّ فيها فاطمة ؟ » .

فصاح غير مكترث ولا مبالٍ :

« وإن .. وإن »[1] .

---

(١) نصّ على هذه الحادثة المروّعة معظم المصادر التاريخيّة ؛ منها : الإمامة والسياسة : ⇦

هل خفيت على عمر الآيات البيّنات التي نزلت في أهل بيت النبوّة ؟ والتي منها :

١ ـ قال الله تعالى : ﴿ قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (١).

٢ ـ وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٢).

٣ ـ وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣).

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ (٤).

هل خفيت على عمر أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله في فضل عترته وسموّ شأنهم ؟

⇦ ١٢/١ . شرح النهج : ٣٤/١ . تاريخ الطبري : ٢٠٢/٣ . تاريخ أبي الفداء : ١٥٦/١ . تاريخ اليعقوبي : ١٠٥/٢ . أعلام النساء : ٢٠٥/٣ . الأموال / أبو عبيد : ١٣١ . مروج الذهب : ٤١٤/١ . الإمام عليّ / عبدالفتّاح عبدالمقصود : ١٣/١ . ونظمها شاعر النيل حافظ إبراهيم :

وقــولَةٍ لِـعَليٍّ قـالَها عُـمَرٌ ... أَكْـرِمْ بِسامِعِها أَعْظِمْ بِمُلْقيها
حَرَّقْتُ دارَكَ لا أُبقي عَليكَ بِها ... إنْ لَمْ تُبايِعْ وبِنتُ المُصطَفى فيها
ما كانَ غيرُ أبي حَفصٍ بِقائِلِها ... أَمامَ فارِسِ عَدنانٍ وحاميها

(١) الشورى ٤٢ : ٢٣ .

(٢) الأحزاب ٣٣ : ٣٣ .

(٣) آل عِمران ٣ : ٦١ .

(٤) الإنسان ٧٦ : ٨ و ٩ .

والتي منها:

١ ـ قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ ما إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُما أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ: كِتابَ اللهِ، حَبْلٌ مَمْدُوْدٌ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ؛ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقا حَتّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيْهِمَا؟»[1].

٢ ـ وعنه ﷺ: «إِنَّما مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَسَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَها نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْها غَرِقَ، وَإِنَّما مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مثل بابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرائِيلَ، مَنْ دَخَلَهُ غُفِرَ لَهُ»[2].

٣ ـ وقال ﷺ لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام: «أَنا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبْتُمْ، وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمْتُمْ»[3].

٤ ـ قال ﷺ وقد أخذ بيد الحسن والحسين عليهما السلام: «مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هٰذَيْنِ وَأَباهُمَا وَأُمَّهُما كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ»[4].

---

(١) صحيح الترمذي: ٣٠٨/٢.

(٢) مجمع الزوائد ٩: ١٦٨. المستدرك ٢: ٤٣. تاريخ بغداد ٢: ١٢٠. الحلية ٤: ٣٠٦. الذخائر: ٢٠.

(٣) مسند أحمد: ٧٧/١. صحيح الترمذي: ٣٠١/٢.

(٤) مسند أحمد: ٧٧/١. كنز العمّال: ٩٧/١٢ و: ٣٩/١٣.
حدّث بهذا الحديث نصر بن عليّ في أيام المتوكّل، فأمر بضربه ألف سوط فكلّمه فيه جعفر بن عبدالواحد، وقال له: إنّه من أهل السنّة حتى عفا عنه ـ تهذيب التهذيب: ٤٣/١٠.

٥ ـ وقال ﷺ : « مَعْرِفَةُ آلِ مُحَمَّدٍ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ ، وَحُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ جَوَازٌ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَالْوِلَايَةُ لِآلِ مُحَمَّدٍ أَمَانٌ مِنَ الْعَذَابِ »[١].

وعشرات من أمثال هذه الأحاديث أثرت عن النبيّ ﷺ ودوّنت في الصحاح والسنن ، وقد أشادت بفضل أهل البيت ﷺ وعظيم منزلتهم عند الله تعالى ورسوله ، وقد أعارها القوم آذاناً صمّاء ، وعمدوا إلى إحراق دارهم وهم ماكثون فيه .

النبيّ ﷺ هو الذي برّ بدين العرب ودنياهم ، وأخرجهم من عبادة الأوثان والأصنام ، ووأد البنات ، وأكل القدّ ، فكان جزاؤه منهم أن عمدوا إلى إحراق دار بضعته ، ثمّ امتدّت الأيدي الأثيمة بعد سنين إلى إبادة عترته في صعيد كربلاء والتمثيل القاسي بأجسامهم ، وحرق خيامهم ، وبنات الوحي يتراكضن في البيداء ، ثمّ عمدوا إلى رفع رؤوس أبناء النبيّ ﷺ على الرماح ، وبنات رسول الله سبايا يطاف بهنّ في الأقطار والأمصار ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

وعلى أي حال ، فإنّ القوم بعدما هجموا على دار الإمام طالعتهم وديعة النبيّ بهالة من النور ، وقد علاها وأطفالها الرعب والفزع ، فوجّهت خطابها لابن الخطّاب قائلة :

« ما الَّذِي جِئْتَ بِهِ يابْنَ الْخَطَّاب ؟ » .

فأجابها بعنف وقسوة غير محترم ولا مبال بمقامها قائلاً :

« الذي جئت به أقوى ممّا جاء به أبوك . . . »[٢].

ثمّ وجّهت له القول ثانياً :

« لَا عَهْدَ لِي بِقَوْمٍ حَضَرُوا أَسْوَأَ مَحْضَرٍ مِنْكُمْ ، تَرَكْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَنَازَةً

---

(١) المراجعات / الإمام الأعظم شرف الدين : ٥٤ .

(٢) أنساب الأشراف : ٥٨٦/١ .

بَيْنَ أَيْدِينا ، وَقَطَعْتُمْ أَمْرَكُمْ بَيْنَكُمْ ، لَمْ تَسْتَأْمِرُونا وَلَمْ تَرُدُّوا لَنا حَقّاً . . . ».

وتبدّد جبروت القوم ، وعرفوا ما اقترفوه من عظيم الإثم على تركهم جثمان نبيّهم لم يحضروه ، وقبل أن يواروه في مثواه الأخير ، تآمروا على أهله وذرّيّته ، واعتدوا على بضعته ، فقد غرّهم الملك والسلطان .

إخراج الإمام

واحتفّت الشرطة بالإمام فأخرجوه بالعنف من داره ، وجيء به مخفوراً إلى أبي بكر ، وقد ذابت روحه أسى وحزناً على ما حلّ به من الهوان والاستخفاف ، والتفت ابن الخطّاب إلى أبي بكر محفّزاً له على الوقيعة بالإمام ، قائلاً له :

« ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة ؟ » .

والتفت أبو بكر إلى الإمام قائلاً :

« بايع » .

« وَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ » .

فصاح القوم به :

« والله الذي لا إله إلّا هو نضرب عنقك » .

صمت الإمام برهة ، ونظر إلى القوم ، فإذا ليس فيهم معين ولا ناصر ، فقال بصوت حزين النبرات :

« إِذَنْ تَقْتُلُونَ عَبْداً للهِ وَأَخا رَسُولِهِ » .

وثار ابن الخطّاب فصاح بالإمام مستخفّاً به :

« أمّا عبد الله فنعم ، وأمّا أخو رسوله فلا » .

ونسي ابن الخطّاب أنّ الإمام نفس رسول الله ﷺ كما دلّت على ذلك بوضوح آية

المباهلة ، وأنّه أخوه وباب مدينة علمه ، فهل كان عمر لا يحضر مجلس النبيّ ﷺ ولم يسمع أحاديثه في فضل الإمام أم أنّه لم يحفل بها ؟

والتفت عمر إلى أبي بكر يحثّه على الوقيعة بالإمام قائلاً له :

« ألا تأمر فيك بأمرك ؟ » .

حماية الزهراء عليها السلام للإمام

وقامت سيّدة نساء العالمين وبضعة رسول الله ﷺ بدور إيجابي في حماية زوجها سيّد الوصيّين ، الذي أترعت نفوس القوم بالحقد والبغض له ، فقد هرعت سلام الله عليها إلى جامع أبيها لإنقاذه ، وخاف أبو بكر من تبلور الأحداث ، واندلاع الثورة عليه ، فأمر بإطلاق سراحه ، وقال :

« لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه » .

فأُطلق سراحه ، وراح يهرول إلى قبر رسول الله ﷺ يستنجد به ، ويشكو إليه ما ألمّ به من الرزايا والخطوب وهو يبكي أمرّ البكاء قائلاً :

« **يابْنَ أُمّ ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** . . » .

لقد استضعفه القوم واستوحدوه ، واستباحوا دمه لأنّه لا ناصر له ولا معين .

وقفل الإمام راجعاً إلى بيته ومعه بضعة الرسول ، وقد أحاطت بهما موجات من الألم والحزن ، واستبان لهما ما تكنّه قريش من الحقد والكراهية لهما .

ثانياً : الحرب الاقتصاديّة

أعلن أبو بكر الحرب الاقتصاديّة على آل النبيّ ﷺ لئلّا تقوى شوكتهم على منازعته ومناهضة حكومته ، فقد أصدر أوامره بما يلي :

١ ـ إلغاء الخمس

أمّا الخمس فهو من الضرائب الماليّة ذات الأهمّية البالغة من الناحية الاقتصاديّة، فهو أضخم مشروع اقتصادي يدفع نصف منه إلى السادة الفقراء ليدفع عنهم غائلة الفقر عوضاً عمّا حرّمه عليهم الإسلام من تناول الزكاة، والنصف الآخر من الخمس يدفع إلى الإمام عليه السلام، في حال حضوره وفي حال غيبته، إلى نائبه وممثّله لينفقه على إحياء الشريعة، وإشاعة المُثل الإسلاميّة بين المسلمين، وقد جاء تشريعه صريحاً في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وانضمّت إلى الآية نصوص كثيرة متواترة في تشريع الخمس، وقد ألغاه أبو بكر رسميّاً بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد صدرت أوامره بإلغائه، وهو من الاجتهاد قبال النصّ، والغرض من ذلك هو إشاعة البؤس والفقر في بيوت السادة العلويّين، وعلى رأسهم سيّدهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حتّى لا يقوى على معارضته.

٢ ـ تأميم ممتلكات النبيّ صلى الله عليه وآله

وأصدر أبو بكر أوامره بتأميم جميع ممتلكات النبيّ صلى الله عليه وآله وضمّها إلى خزينة الدولة، وهو من الحرب الاقتصاديّة الذي تستعمله الدول ضدّ خصومها حتّى لا تقوى شوكتهم على القيام بأيّة حركة عسكريّة أو إعلاميّة ضدّهم.

---

(١) الأنفال ٨: ٤١.

٣ ـ تأميم فدك

من الإجراءات القاسية التي اتّخذها أبو بكر ضدّ العترة الطاهرة تأميمه لفدك، ومصادرتها لبيت المال، وهي ممّا أفاء الله تعالى بها على عبده ورسوله في السنة السابعة من الهجرة، ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب حتّى يترتّب عليها الخمس، فهي كاملة للنبيّ ﷺ، فقد صالح أهلها الرسول حينما فتح حصون خيبر على نصف أراضيهم، فكانت فدك خالصة للنبيّ ﷺ.

ولمّا نزلت عليه الآية: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾[1] دعا النبيّ ﷺ سيّدة النساء فاطمة عليها السلام فأعطاها فدكاً والعوالي، وقال لها:

«هٰذا قِسْمٌ قَسَمَهُ اللهُ لَكِ وَلِعَقِبِكِ»[2].

وتصرّفت فيها سيّدة النساء عليها السلام تصرّف الملّاك في أملاكهم، ولم يكن لأهل البيت عليهم السلام أي مورد اقتصادي غيرها، حسبما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«بَلىٰ، كانَتْ فِي أَيْدِينا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ ما أَظَلَّتْهُ السَّماءُ».

لقد صادرها أبو بكر لإضعاف الإمام اقتصادياً، وشلّ معارضته.

قال ابن أبي الحديد:

«سألت عليّ بن الفارقي مدرّس المدرسة الغربيّة ببغداد، فقلت له:

أكانت فاطمة صادقة في دعواها لفدك؟

---

(١) الإسراء ١٧: ٢٦.

(٢) شواهد التنزيل: ١/٤٤١. الدرّ المنثور: ٢/١٥١. كنز العمّال: ٢/١٥٨. روح المعاني: ٥/٥٨.

نعم .

فلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة ؟

فتبسّم وقال كلاماً لطيفاً منسجماً مع ناموسه وحرمته ، وقلّة دعابته ، ثمّ قال : لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء ؛ لأنّه يكون قد سجّل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان مىن غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود »[1] .

وعلى أي حال ، فقد عمدت حكومة أبي بكر وعمر من بعده إلى التصرّف في فدك حسب رغباتهم ، ولمّا آلت الخلافة إلى عثمان بن عفّان ، الذي كان مولعاً بحبّ أسرته ، وهب فدكاً إلى وزيره ومستشاره مروان بن الحكم الذي عُرف بخيط الباطل ، وكان ذلك من أسباب النقمة على عثمان[2] ، وبعد هلاك مروان توارثها أبناؤه إلى أن تولّى عمر بن عبدالعزيز الحكم فانتزعها من الأمويّين وردّها صدقة[3] .

هذا ما لاقاه الإمام عليه السلام من صنوف التنكيل من أبي بكر الذي انتزع الخلافة منه وقابله بهذه الإجراءات القاسية التي ملأت قلبه أسى وحزناً وحسرات .

رزيّته عليه السلام بفقد الزهراء عليها السلام

ومن أعظم الرزايا التي مني بها الإمام المظلوم فقده لبضعة رسول الله صلى الله عليه وآله التي كانت امتداداً لأخيه وابن عمّه ، والتي وقفت محامية عنه ، ولولاها لصفّوا جسده بغضاً له ، وانتقاماً منه لما أراق من دمائهم في يوم بدر .

---

(١) شرح النهج / ابن أبي الحديد : ١/١٩٨ .

(٢) العقد الفريد : ١/٢٨٣ .

(٣) تاريخ أبي الفداء : ١/١٦٨ .

لقد ألمّت المصائب والرزايا ببضعة الرسول ﷺ، وكان من أقساها وأشدّها بلاءً ومحنةً إقصاء زوجها عن الخلافة، ومصادرة ما خلّفه النبيّ من ميراث إمعاناً من القوم في فقرها، وسلب القوت عنها.

لقد فاجأها الموت وهي في شبابها الغضّ الأهاب، وقد نخب الحزن قلب الإمام عليها، فقد وقف على حافّة قبرها وهو يصوغ من حزنه كلمات قائلاً:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوارِكَ، السَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ.

قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ «فَإِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

لَقَدْ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسْهَّدٌ إِلَىٰ أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَظَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَىٰ هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ: هٰذا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ، لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ»[1].

حكت هذه الكلمات حزنه العميق على فقده لوديعة رسول الله ﷺ، كما حكت ما ألمّ ببضعة الرسول من الكوارث، ويطلب منه أن يلحّ عليها في السؤال لتخبره

---

(١) نهج البلاغة: ٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

تفصيلاً بما جرى عليها من الظلم في الفترة القصيرة التي عاشتها من بعده.

اعتزاله النّاس

وطافت بوصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه موجات من الآلام القاسية التي حلّت به من غصب حقوقه، والاعتداء عليه، والتنكّر لسموّ مقامه، فاعتزل النّاس، وخلد إلى السكون، وصار بمعزل عن الحياة السياسيّة والاجتماعيّة، لم تشاركه السلطة فيما تعزم عليه من المخطّطات والأعمال، اللّهمّ إلّا إذا حلّت بنادي الخلافة مشكلة أو مسألة لا يهتدون لحلّها، فإنّهم يفزعون إليه ليكشف لهم الستار عنها، فقد كان المرجع الوحيد في مسائل القضاء، فإنّه أعلم به من غيره، فقد قال النبيّ ﷺ:

«أَقْضاكُمْ عِلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ»[1].

وعلى أي حال، فقد تجرّع الإمام ألواناً من الغصص في أيّام حكومة أبي بكر، وقد ألمحنا إلى بعضها في البحوث السابقة.

الإمام عليه السلام في عهد عمر

تسلّم عمر قياة الدولة بعد وفاة أبي بكر الذي كانت أيّام حكمه قصيرة، وقد ساس عمر البلاد بعنف وصرامة، وقد تحاشى لقاء أكابر الصحابة لشدّته، فليس لأي أحد أن يعارضه أو يفتي بخلاف فتواه، فقد أفتى بحرمة المتعتين: متعة النساء، ومتعة الحجّ، وكان ابن عبّاس حبر الأمّة لا يستطيع أن يعترض عليه في ذلك التحريم بعدما كانتا محلّلتين في عهد النبيّ ﷺ وأبي بكر.

وكان عمر ـ فيما يقول الرواة ـ: شديد الميول للأمويّين، وقد رووا أمثلة كثيرة من ذلك، منها:

---

(١) يراجع في ذلك الاستيعاب: ٤٦١/٢.

١ ـ إنّه كان يحاسب عمّاله في كلّ سنة ، ويناصفهم ما استفادوه من الأموال إلّا معاوية ، فلم يحاسبه ولم يشاطره أمواله ، وقد قيل له : إنّه يقترف ما حرّم الله تعالى ، فكان يشرب في أواني الذهب والفضّة ، ويلبس الحرير ، فيعتذر عنه ويسدّده ، ويقول : إنّه كسرى العرب ، وهو اعتذار مهلهل ، فمتى كان معاوية كسرى العرب وقد أذلّه ، وأذلّ أباه رسول الله ﷺ ، فقد رأى النبيّ ﷺ أبا سفيان راكباً ناقة ومعاوية يسوقها وابنه الآخر يقودها ، فلعنهم وقال :

« اللّٰهُمَّ الْعَنِ الرّاكِبَ وَالْقائِدَ وَالسّائِقَ ».

وجاءت امرأة إلى النبيّ خطبها معاوية تستشيره في الزواج منه ، فمنعها وقال لها :

« لا تَتَزَوَّجي بِهِ فَإِنَّهُ صُعْلُوكٌ »[1].

ولو فرضنا أنّ معاوية كسرى العرب فهل يباح له أن يقترف ما حرّم الله تعالى من لبس الحرير والديباج واستعمال أواني الذهب والفضّة .

٢ ـ بعث عمر بأموال إلى هند أمّ معاوية لتتّجر بها ، وتستفيد من أرباحها ، حتّى لا تكون في ضائقة اقتصاديّة ، وهو وصاحبه أبو بكر قد صادرا بلفة العيش من بضعة رسول الله ﷺ وحرماها من كلّ مورد اقتصادي .

٣ ـ إنّ عمر أقام في بيته غرفة فرشها بأحسن ألوان الفراش ، ونهى عن الدخول فيها ، وأعدّها إلى أبي سفيان وقال إنّه شيخ قريش كما يقول .

وعلى أيّ حال ، فنحن لسنا بصدد دراسة سياسة عمر ، وما أثر عنه من الأحداث ، خصوصاً عدم الإحاطة بشؤون الشريعة الإسلاميّة ، فقد اعترف بعجزه عنها ، فقد قال : « لولا عليّ لهلك عمر » ، وقال : « حتّى النساء أفقه منك يا عمر » .

ومهما يكن الأمر ، فإنّ الذي يهمّنا التعرّف على ما بين الإمام عليه السلام وعمر من

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢/١٥٠ .

الارتباط والصلة ، وعند التأمّل المجرد من العواطف والنزعات المذهبيّة نجد أنّ الصلة لم تكن وثيقة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة بينهما ، فعمر هو الذي حال ما بين النبيّ ﷺ والكتابة ، وهو على فراش المرض حينما قال :

« ائْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالدَّوَاةِ لِأَكْتُبَ لَكُمْ كِتاباً لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَداً ».

وقد عرف عمر أنّ النبيّ ﷺ أراد أن يكتب في حقّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ويوصي به ، فحال بينه وبين ذلك واتّهم النبيّ ﷺ بالهجر[1].

وقال مرّة أُخرى : « حسبنا كتاب الله تعالى ».

وقال مرّة ثالثة : « لا تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد ».

وقد اعترف عمر في حديثه مع ابن عبّاس بأنّ النبيّ ﷺ أراد أن يكتب في حقّ الإمام ، فحال بينه وبين ذلك.

ويتّضح ذلك بصورة مكشوفة في نظام الشورى الذي وضعه عمر وهو على فراش الموت ، فإنّ الهدف منه إقصاء الإمام عن الخلافة ، وهذا ما سنتحدّث عنه.

نظام الشورى

لمّا اغتال أبو لؤلؤة الفارسي عمر أخذ يطبل التفكير فيمن يتولّى شؤون الحكم من بعده ، وتذكّر أقطاب حزبه الذين شاركوه في السقيفة لصرف الأمر عن أهل البيت عليهم السلام ، وقد حصدهم الموت ، فجزع عليهم وقال :

« لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته ؛ لأنّه أمين هذه الأُمّة ، ولو كان سالم مولى

---

(١) نصّ على هذه الحادثة المؤلمة جميع المؤرّخين في الإسلام ، ذكرها البخاري عدّة مرّات في صحيحه : ٦٩/٤ و ٩٩ ، و : ٨/٦ ، إلّا أنّه أخفى اسم القائل ، وصرّح ابن الأثير في نهاية غريب الحديث وغيره أنّ القائل هو عمر بن الخطّاب ، وقد اعترف عمر في حديثه مع ابن عبّاس أنّه صدّ النبيّ ﷺ عن الكتابة في حقّ عليّ وعترته كما في شرح النهج : ١١٤/٣.

أبي حذيفة حيّاً لولّيته الأمر ؛ لأنّه شديد الحبّ لله تعالى » .

لقد أسف عمر على هلاك أبي عبيدة وسالم ، ولو كانا حيّين لقلّدهما الحكم .

أمّا أبو عبيدة بن الجرّاح ، فشخص عادي لا شأن له ، وليست له أيّة خدمة للإسلام . نعم ، إنّه من أقطاب حزبه ، فقد وقف إلى جانب أبي بكر وعمل جاهداً لصرف الخلافة عن الإمام ، كما كان أحد الهاجمين على بيت الإمام وحمله قسراً إلى أبي بكر .

وأمّا سالم ، فرجل غير عربي ، ولم يكن له أي شأن في خدمة الإسلام ، كما ليست له أيّة قيمة في الأوساط الإسلاميّة ، فقد كان شخصاً عادياً . نعم ، هو من أخلص النّاس لعمر ومن أكثرهم اتّصالاً به ، وهو أحد المهاجمين لبيت الإمام عليه السلام .

لقد فتّش عمر في سجلّ الأموات عمّن هو أهل للخلافة ، فتذكّر ابن الجرّاح ومولى أبي حذيفة ، ونسي بطل الإسلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، الذي هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، وباب دار حكمته ، وأبو سبطيه ، والبائت على فراشه حينما أرادت قريش قتله ، وناصره في جميع المواقف والمشاهد ، أليس ذلك يحكي عن انحرافه عن الإمام وكراهيّته له ؟!

وعلى أي حال ، فقد رأى عمر أن يصرف الخلافة عن الإمام ويمنحها لبني أميّة ، فجعلها شورى في جماعة زعم أنّ الإمام أحدهم ، وهي مؤامرة خطيرة دبّرها ضدّ الإمام .

يقول كاشف الغطاء :

« الشورى بجوهرها وحقيقتها مؤامرة واقعيّة ، وشورى صوريّة ، وهي مهارة بارعة لفرض عثمان خليفة على المسلمين رغماً عليهم ، ولكن بتدبير بارع عاد على الإسلام والمسلمين بشرّ ما له دافع » .

أعضاء الشورى

أمّا أعضاء الشورى الذين انتخبهم عمر ممثّلين للشعوب الإسلاميّة فهم:

١ ـ الإمام أمير المؤمنين عميد الأُسرة النبويّة.

٢ ـ عثمان بن عفّان شيخ الأمويّين.

٣ ـ الزبير.

٤ ـ طلحة.

٥ ـ سعد بن أبي وقّاص.

٦ ـ عبدالرحمن بن عوف.

وهؤلاء الجماعة يمثّلون المجتمع الإسلامي ـ باختيار عمر ـ مدّعياً أنّ رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راضٍ، إلّا أنّه سرعان ما انتقص معظمهم، وجرح بعضهم.

عمر مع أعضاء الشورى

جمع عمر أعضاء الشورى وأخذ يحدّثهم عن نفسيّاتهم وميولهم، فخاطبهم قائلاً:

«أكلّكلم يطمع بالخلافة بعدي؟».

ووجموا عن الكلام، فأعاده عليهم ثانياً، فانبرى إليه الزبير قائلاً:

«ما الذي يبعدنا عنها، وليتها أنت فقمت بها ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة، ولا في القرابة؟».

ولم يستطع عمر أن يردّ على الزبير، فقد كان منطقه حافلاً بالواقع، وليس فيه أية مغالطة.

والتفت عمر إلى الجماعة فقال لهم:

«أفلا أُخبركم عن أنفسكم ؟».

«قل فإنّا لو استعفيناك لم تعفنا».

مع الزبير

ووجّه عمر كلامه صوب الزبير قائلاً:

«أمّا أنت يا زبير، فوعق لقس[1]، مؤمن الرضا، كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلّها لو أفضت ـ أي الخلافة ـ إليك ضللت يومك تلاطم البطحاء على مدّ من شعير، أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعري من يكون للنّاس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب ؟ وما كان الله تعالى ليجمع لك أمر هذه الأُمّة وأنت على هذه الصفة..».

ومع علمه بنفسيّة الزبير، وأنّه يوماً شيطان ويوماً إنسان، وأنّه مصاب بالبخل والشحّ، ويلاطم البطحاء على مدّ من شعير، كيف يرشّحه للخلافة ويجعله من أعضاء الشورى ؟

مع طلحة

وأقبل عمر على طلحة فقال له:

«أقول أم أسكت ؟».

فزجره طلحة واستهان به قائلاً:

«إنّك لا تقول من الخير شيئاً».

---

(١) الوعق: الضجر المتبرّم. اللقس: من لا يستقيم على رأي.

ولذعت مقالة طلحة عمر وراح يندّد به ، ويذكر مساوءه قائلاً :

« أما أني أعرفك منذ أُصيبت إصبعك وائياً [١] بالذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله ﷺ وهو ساخط عليك بالكلمة التي قلتها يوم أُنزلت آية الحجاب » .

وقد أعلن أنّ رسول الله ﷺ مات وهو ساخط على طلحة ، وهو ينافض ما قاله إنّ رسول الله مات وهو راضٍ عن أعضاء الشورى .

قال الجاحظ :

« لو قال لعمر قائل : أنت قلت : إنّ رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن الستّة فكيف تقول الآن لطلحة إنّه مات عليه السلام وهو ساخط عليك للكلمة التي قلتها ، لما كان أن يقول له : ما دون هذا فكيف هذا ؟ » [٢] .

مع سعد بن أبي وقّاص

وأقبل عمر على سعد بن أبي وقّاص فقال له :

« إنّما أنت صاحب مقنب [٣] من هذه المقانب ، تقاتل به ، وصاحب قنص وقوس ، فلا يصلح للخلافة ،وليس خليقاً بها هو وأسرته » .

وإذا كان سعد رجل صيد ولهو فكيف رشّحه لمركز الخلافة وجعله من أعضاء الشورى ؟

مع عبدالرحمن بن عوف

والتفت عمر إلى عبدالرحمن بن عوف فقال له :

---

(١) وائياً : أي غاضباً .

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢٤٠/١ .

(٣) المقنب : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل .

« وأمّا أنت يا عبدالرحمن ، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به ، ولكن لا يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما زهرة وهذا الأمر ! » .

إنّ عبدالرحمن مثال للإيمان والتقوى ـ كما يزعم عمر ـ ومن إيمانه الوثيق أنّه عدل عن انتخاب سيّد العترة ، وباب مدينة علم النبيّ ﷺ واختار لقيادة الأُمّة عثمان بن عفّان ، الذي سلّم الحكم إلى بني أُميّة الذين جهدوا على محاربة الإسلام ، وإذلال المسلمين ، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الإيمان ليس وحده كافياً لقيادة الأُمّة مالم يكن مشفوعاً بالقابليّات والخبرة التامّة بالشؤون الإداريّة والاقتصاديّة والسياسيّة ، ومضافاً لذلك فإنّ ابن عوف كان ضعيف الإرادة ، خائر العزم ، والخلافة تحتاج إلى زعيم قوي في إرادته ، فكيف جعله من أعضاء الشورى البارزين ؟

مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

وأقبل عمر على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له :

« لله أنت لولا دعابة فيك ، أما والله إن وليتهم لتحملنّهم على الحقّ الواضح ، والمحجّة البيضاء » .

متى كان للإمام أمير المؤمنين عليه السلام الدعابة ، وهو الذي ما ألف في حياته غير الأعمال المرهقة الخالية من المرح ، وعلى تقدير اتّصافه فإنّه من خُلق الأنبياء ، ومن خُلق الرسول ﷺ ، فقد ورد أنّه كان يداعب الرجل ليسرّه بذلك ، وقد ذكرنا صوراً من مداعبة النبيّ ﷺ مع بعض أصحابه في كتابنا (حياة النبيّ ﷺ) .

وهل من الحيطة على الإسلام أن يفتل عمر حبل الشورى لإقصاء الإمام عن مركز الخلافة ، وهو حسب اعترافه أنّه لو تولّى الحكم لحمل المسلمين على الحقّ الواضح والمحجّة البيضاء ، وقال النبيّ ﷺ :

«إِنْ وَلَّوا عَلِيّاً فَهادِياً مَهْدِيّاً»[١].

وقالت بضعة رسول الله ﷺ وسيّدة نساء العالمين عليها السلام:

«وَيْحَهُمْ أَنّىٰ زَحْزَحُوها عَنْ رَواسي الرِّسالَةِ، وَقَواعِدِ النُّبُوَّةِ وَالدَّلالَةِ، وَمَهْبِطِ الرُّوحِ الْأَمينِ، وَالطَّبينِ[٢] بِأُمورِ الدُّنْيا وَالدّينِ، أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبينُ.

وَما الَّذي نَقِمُوا مِنْ أَبي الْحَسَنِ، نَقِمُوا وَاللهِ مِنْهُ نَكيرَ سَيْفِهِ، وَقِلَّةَ مُبالاتِهِ لِحَتْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ، وَنَكالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ[٣] فِي ذاتِ اللهِ.

وَتاللهِ لَوْ مالُوا عَنِ الْمَحَجَّةِ اللّائِحَةِ، وَزالُوا عَنْ قَبُولِ الْحُجَّةِ الْواضِحَةِ لَرَدَّهُمْ إِلَيْها، وَحَمَلَهُمْ عَلَيْها، وَلَسارَ بِهِمْ سَيْراً سُجُحاً[٤]، لا يُكْلَمُ[٥] خِشاشُهُ، وَلا يَكِلُّ سائِرُهُ، وَلا يَمَلُّ راكِبُهُ، وَلَأَوْرَدَهُمْ مَنْهَلاً نَميراً صافِياً رَوِيّاً، تَطْفَحُ ضِفَّتاهُ، وَلا يَتَرَنَّقُ جانِباهُ، وَلَأَصْدَرَهُمْ بِطاناً، وَنَصَحَ لَهُمْ سِرّاً وَإِعْلاناً».

إنّ الإمام رائد العدالة الاجتماعيّة في دنيا الإسلام، ولو تولّى الحكم لوفّر للمسلمين جميع خيرات الحياة، ونفى الحاجة والبؤس عن المجتمع، وصان المسلمين من التأخّر والانحطاط.

---

(١) الاستيعاب: ٥/٣.

(٢) الطبين: الفطن الحاذق العالم بكلّ شيء.

(٣) تنمّر: عبس وغضب.

(٤) سجحاً: سهلاً.

(٥) كلمه: جرحه.

مع عثمان بن عفّان

وأقبل عمر على عثمان زعيم الأسرة الأمويّة ، فقال له :

« هيها إليك ! ! كأنّي بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك ، فحملت بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب النّاس ، وآثرتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً ، والله لئن فعلوا لتفعلنّ ، ولئن فعلت ليفعلنّ » .

ثمّ أخذ بناصيته وقال له : « إذا كان ذلك فاذكر قولي »[1] .

ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة مع هذه الكلمات التي أدلى بها عمر :

أوّلاً : إنّ قوله : « كأنّي بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك . . . » هذا صحيح ، فإنّ الذي قلّد عثمان الخلافة ، وسلّطه على رقاب المسلمين إنّما هو عمر ، وهو لسان قريش وعميدها ، ومن المؤسف أنّ الخلافة الإسلاميّة التي هي ظلّ الله في الأرض تكون بيد قريش الذين حاربوا رسول الله ﷺ وجهدوا بجميع قواهم على إطفاء نور الإسلام ، ومن المؤسف أن يكون مصيرها بأيديهم وليس لهم أي رصيد من التقوى والإيمان .

إنّ الخلافة إذا لم تكن بالنصّ فمن الأجدر أن تكون بيد الأوس والخزرج الذين وقفوا مع الإسلام في أيّام غربته ومحنته ، وقدّموا المزيد من التضحيات في سبيله ، فهؤلاء هم حضنة الإسلام لا قريش .

ومن المؤسف أنّه لم يجعل لهم أي نصيب في الشورى ، وإنّما جعل أعضاءها من قريش فقط .

ثانياً : إنّ عمر مع معرفته بنفسيّة عثمان أنّه يحب بني أميّة وبني أبي معيط ،

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١/١٨٥ ـ ١٨٦ .

ويخلص لهم في المودّة ويحملهم على رقاب المسلمين كيف يسوغ له أن يقلّده الحكم، ويحمل المسلمين رهقاً؟

ثالثاً: إنّه تحقّق ما تنبّأ به عمر، فإنّ عثمان آثر بني أُميّة بالفيء، ووهبهم الثراء العريض، والمناصب العليا في الدولة، فهبّ المسلمون إلى قتله الذي فتح أبواب الشرّ على المسلمين.

عمر مهّد الحكم لعثمان

وضع عمر الأُسلوب الذي يفوز به عثمان بن عفّان، فقد قال للسلطة التنفيذيّة:

«إنّ رسول الله ﷺ مات وهو راضٍ عن هؤلاء الستّة من قريش، وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم واحداً منهم..».

ثمّ التفت إلى المقداد فقال له:

«إذا اتّفق خمسة وأبى واحد منهم فاضربوا عنقه، وإن اتّفق أربعة وأبى اثنان فاضربوا عنقيهما، وإن اتّفق ثلاثة منهم على رجل، ورضي ثلاثة منهم برجل، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه النّاس».

ووضع عمر الشورى بهذا المنهج الدموي، والغرض منه صرف الخلافة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهبتها لبني أُميّة، كما أدلى الإمام بذلك في حديثه مع عمّه العبّاس، فقد قال له:

«**يا عَمِّ، لَقَدْ عدلَتْ عَنّا**».

وسارع العبّاس قائلاً:

«من أعلمك بذلك؟».

« لَقَدْ قَرَنَ بِي عُثْمانَ وَقالَ : كُونُوا مَعَ الْأَكْثَرِ ، ثُمَّ قالَ : كُونُوا مَعَ عَبْدِ الرَّحْمنِ ، وَسَعْدٌ لَا يُخالِفُ ابنَ عَمِّهِ عَبْدَالرَّحْمنِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمنِ صِهْرٌ لِعُثْمانَ ، وَهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ ، فَإِمّا أَنْ يوَلِّيها عَبْدُ الرَّحْمنِ لِعُثْمانَ ، أَوْ يُولِّيها عُثْمانُ لِعَبْدِ الرَّحْمنِ . . »[1].

وقد كوت هذه الشورى العمريّة الإمام ، فراح يقول بعد سنين :

حَتَّىٰ إِذا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ ـ يعني عمر ـ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ ، فَيَالَلَّهِ وَلِلشُّورَىٰ ! مَتَىٰ اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ ـ يعني أبا بكر ـ مِنْهُمْ ، حَتَّىٰ صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَىٰ هٰذِهِ النَّظَائِرِ ! ».

أجل والله متى اعترض الريب في أنك أفضل المسلمين إيماناً ، وأعظمهم شأناً ، وأجلّهم قدراً ، ومن مصائب الدهر وكوارث الأيام أن تقاس بهؤلاء النفعيّين الذين لم يألفوا إلّا مصالحهم الضيّقة ، فحرموا الأُمّة من الانتهال من نمير علمك ومن عدلك ومثلك الكريمة ، وقيمك العظمى ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

وعلى أي حال ، فقد بسطنا الحديث عن آفات الشورى ومتاركها الفظيعة التي ألقت الأُمّة في شرّ عظيم في كتابنا (الشورى) .

الانتخاب

واجتمع أعضاء الشورى وتداولوا الحديث فيمن هو أحقّ بالأُمّة ، وأولى بمركز الخلافة ، فانبرى إليهم الإمام المظلوم فحذّرهم من الفتن والضلال إن استجابوا لرغباتهم الخاصّة قائلاً :

---

(١) تاريخ الطبري : ٥/٣٥ .

« لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصِلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ . فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَعُوا مَنْطِقِي ؛ عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هٰذَا الْأَمْرَ ـ أي الخلافة ـ مِنْ بَعْدِ هٰذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ السُّيُوفُ ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ » .

وأعار القوم حديث الإمام أُذُناً صمّاء ، وألقوا الأمّة في مستنقع من البلاء والفتن ، ولم يقرّروا لها حقّ المصير .

وانبرى طلحة فوهب حقّه لعثمان ، وإنّما فعل ذلك لانحرافه وبغضه للإمام ، ووهب الزبير حقّه للإمام ، واندفع سعد فوهب حقّه لعبدالرحمن بن عوف لأنّه ابن عمّه ، وتقوّت جبهة ابن عوف الذي أناط به عمر أمر الشورى ، وجعل رأيه الفيصل ، وكان لا يرى نفسه أهلاً لتسلّم السلطة ، وذلك لعدم قدرته على إدارتها ، فاتّجه إلى ترشيح غيره ، وكانت ميوله مع عثمان .

وأكبر الظنّ أنّ عمر إنّما عهد له بذلك لأنّه استشار القرشيّين في الأمر وهم أعداء الإمام فزهدوه فيه ، وحبّذوا له انتخاب عثمان .

وفي الساعة المقرّرة للانتخاب التفت ابن عوف إلى الحاضرين فقال لهم :

« أشيروا عليَّ في هذين » يعني الإمام وعثمان .

فأشار عليه الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر فقال له :

« إن أردت ألّا يختلف النّاس فبايع عليّاً » .

فقد أشار عليه بما يصون الأمّة من الضلال والاختلاف ، وأيّده المقداد فقال :

« صدق عمّار ، إن بايعت عليّاً سمعنا وأطعنا » .

وقام عبدالله بن أبي سرح ، وهو من أعمدة الأمويّين الذين ناهضوا النبيّ ، فخاطب ابن عوف :

« إن أردت ألّا تختلف قريش فبايع عثمان ».

ومن المؤسف انّ أمور المسلمين تؤول إلى أعداء الإسلام وخصومه القرشيّين.

واندفع عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي فقال:

« صدق ابن أبي سرح، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا ».

وتألّم عمّار فصاح بابن أبي سرح قائلاً:

« متى كنت تنصح للإسلام ؟ ».

وصدق عمّار، فمتى كان ابن أبي سرح ناصحاً للمسلمين، بل كان من أعدى النّاس، وأحقدهم على رسول الله ﷺ، ولمّا فتح النبيّ مكّة أمر بقتله، ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة[1].

أمثل هذا الدنس الحقير يتدخّل في شؤون المسلمين ؟! ولكنّ الشورى العمريّة سمحت له بذلك، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

واحتدم الجدال بين الهاشميّين والأمويّين، فانبرى عمّار بن ياسر سيّد المسلمين فقال:

« أيّها النّاس، إنّ الله أكرمكم بنبيّه، وأعزّكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم ؟ ».

وحفل كلام عمّار بمنطق الحقّ، فإنّ قريشاً وسائر العرب أسعدها الله تعالى بنبيّه العظيم، وليس من الوفاء له بشيء أن تصرف الخلافة عن أهل بيته الذين هم معدن الرحمة والكرامة لهذه الأُمّة.

وانبرى رجل من مخزوم فقطع على عمّار كلامه، وصاح به:

« لقد عدوت طورك يابن سميّة، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟ ».

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام

أي حقّ لقريش في خلافة المسلمين ، ولو كان هناك وعي إسلامي لأبعدوا القرشيّين عن التدخّل في شؤونهم العامّة ، وعاملوهم معاملة العبيد لهم .

إنّ الخلافة الإسلاميّة حقّ للضعفاء الذين ساندوا الرسول وآمنوا برسالته ، وضحّوا بنفوسهم وأموالهم ، وفي طليعتهم ابن سميّة الشهيدة الأُولى في الإسلام ، وليس لطغاة قريش أي رأي في خلافة المسلمين ، لو كان هناك منطق أو حساب .

انتخاب عثمان

ولمّا احتدم الجدال بين القوى الإسلاميّة وقوى الضلال التفت سعد بن أبي وقّاص إلى ابن عوف وطلب منه أن يحسم الموضوع .

فأسرع ابن عوف نحو الإمام وقال له :

« هل أنت مبايعي على كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر ؟ » .

فرمقه إمام المتّقين بطرفه ، وأجابه بمنطق الإيمان والإخلاص للإسلام قائلاً :

« **بَلْ عَلىٰ كِتابِ اللهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَاجْتِهادِ رَأْيي** » .

هذا هو منطق عليّ عليه السلام ليس فيه مواربة ولا خداع ولا تضليل ، الدولة يجب أن يكون قانونها كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه واجتهاده الخاصّ ، الذي هو من نفحات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أمّا فعل الشيخين فهو ملغي برأي الإمام ، فقد كان كلّ واحد منهما قد ناقض الآخر في سياسته وسلوكه ، فقد كان لأبي بكر رأيه الخاصّ في مالك بن نويرة الذي قتله خالد بن الوليد وزنى بزوجته ، فقد برّره أبو بكر ، وحمله على الصحّة في حين أنّ عمر رأى أنّه لا بدّ من إقامة الحدّ عليه ، ولا مجال لاعتذار أبي بكر عنه .

وكان لأبي بكر رأيه الخاصّ في السياسة الماليّة ، قريبة من المساواة في حين أنّ عمر ألغى ذلك وأوجد الطبقيّة ، فقدّم بعض المسلمين على بعض ، ولعمر فتواه الخاصّة في ميراث الجدّة وغيرها ، فعلى أي منهج يسير وصيّ رسول الله

وباب مدينة علمه ؟

وعلى أي حال ، فلو كان الإمام يروم الملك والسلطان لأجابه إلى ذلك ، ثمّ يسير بعد ذلك على وفق رأيه ، ولكنّه أبى إلّا الصراحة ، ونبذ المداهنة ، فانطلق ابن عوف نحو عثمان فوجده باسطاً ذراعيه يتلقّى كلّ شرط بالقبول ، فمدّ إليه يده فصفق عليها عبدالرحمن وقال :

« اللّهمّ إنّي قد جعلت ما في رغبتي من ذلك في رقبة عثمان » .

واندحرت القوى الخيّرة ، فقد آلت الخلافة إلى شيخ الأمويّين وعميدهم ، واستولى الأسى والحزن على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وراح يقول لابن عوف :

« **وَاللهِ ! ما فَعَلْتَها إِلَّا لِأَنَّكَ رَجَوْتَ مِنْهُ ما رَجا صاحِبُكُما** ـ يعني أبابكر ـ **لَهُمْ مِنْ صاحِبِهِ** ـ عُمر ـ **دَقَّ اللهُ بَيْنَكُما عِطْرَ مَنْشِمٍ**[1] . . . » .

وابتهجت قريش بفوز عثمان ، فالتفت لها الإمام قائلاً :

« **لَيْسَ هٰذا أَوَّلُ يَوْمٍ تَظاهَرْتُمْ فِيهِ عَلَيْنا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلىٰ ما تَصِفُونَ** . . » .

واندفع ابن عوف يحذّر الإمام قائلاً :

« يا عليّ ، لا تجعل على نفسك سبيلاً » .

وغادر الإمام قاعة المسجد ، وقد أُترعت نفسه بالأسى والحزن وهو يقول :

---

(١) منشم : اسم امرأة بمكّة كانت عطّارة ، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طيبها ، فإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم فكان يقال : اشأم من عطر منشم ، جاء ذلك في صحاح الجوهري : ٥/٢٠٤١ . وقد استجاب الله دعاء الإمام فكانت بين عبدالرحمن وعثمان أشدّ المنافرة والخصومة ، وقد أوصى أن لا يصلّي عليه عثمان بعد موته .

« سَيَبْلُغُ الْكِتابُ أَجَلَهُ . . » .

والتفت الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر إلى ابن عوف قائلاً:

« يا عبدالرحمن ، أما والله لقد تركته ، وأنّه من الذين يقضون بالحقّ وبه كانوا يعدلون » .

وتميّز المقداد غيظاً وراح يقول :

« تا الله ! ما رأيت مثل ما أتى على أهل هذا البيت بعد نبيّهم . واعجباً لقريش ! لقد تركت رجلاً ما أقول ولا أعلم أنّ أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ، أما لو أجد أعواناً . . . » .

وقطع عليه ابن عوف كلامه قائلاً:

« اتّق الله يا مقداد ؛ فإنّي خائف عليك الفتنة »[1] .

لقد تجرّع الإمام المآسي والآلام من قريش التي ناجزت الرسول ، وبذلت جميع طاقاتها لإطفاء أنوار رسالته حسداً وحقداً عليه ، وبنفس هذا الدور حاربت وصبّه وباب مدينة علمه .

الإمام عليه السلام في عهد عثمان

استقبل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عهد عثمان بأسى بالغ وحزن عميق ؛ وذلك لما سيجري على المسلمين في عهده من الويلات والخطوب ، واستيلاء بني أميّة وآل أبي معيط على مقدّرات الدولة ، ونهبهم لثرواتها كما تحقّق ذلك .

وعلى أي حال ، فإنّ العلاقة بين الإمام وبين عثمان لم تكن وثيقة وإنّما كانت متّسمة بالكراهية والنفور ، فالأمويّون يحقدون على الإمام كأعظم ما يكون الحقد ؛

---

(١) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١/١٩٤ .

لأنّه أباد أعلامهم في واقعة بدر، كما أنّ الإمام كان يحقد عليهم، وينظر إليهم نظرة ريبة وشكّ في إسلامهم.

وعلى أيّ حال، فإنّ حكومة عثمان لم تلبث إلّا قليلاً حتّى سلّمت معظم أجهزة الدولة من المناصب العالية إلى الأمويّين، ووهبتهم الثراء العريض، فقد أخلص لهم عثمان كأعظم ما يكون الإخلاص، وودّ أن تكون مفاتيح الجنّة بيده ليهبها لهم.

وأثارت هذه السياسة الملتوية سخط العامّة ونقمة الأخيار والمتحرّجين في دينهم، وقد ضمّت الجبهة المعارضة لحكومة عثمان أعلام الصحابة وفي طليعتهم:

١ ـ الصحابي الجليل عمّار بن ياسر.

٢ ـ الصحابي العظيم أبو ذرّ الغفاري.

٣ ـ الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود.

ويضاف إليهم السيّدة عائشة، فقد أفتت بقتله، وعدم حرمة دمه، فقالت: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر».

مع أبي ذر

وقد نكّل عثمان بالمعارضين أفظع تنكيل وأقساه، فقد نفى الصحابي أبا ذرّ إلى الربذة، وحرّم الخروج لتوديعه، وقد ودّعه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بكلمات تنمّ عن إجلاله وإكباره قائلاً له:

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلّهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالْأَكْثَرُ حُسَّداً. وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ

عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَى اللهَ لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ».

حدّد الإمام بهذه الكلمات الذهبيّة شخصيّة أبي ذرّ الذي أخلص للحقّ، وأنكر المنكر، ونهى عن الباطل، وآمن بالإسلام، ووقف بشموخ وصلابة مطالباً بحقوق المستضعفين والمحرومين، وقاوم حكومة عثمان التي استأثرت بالفيء ووهبته بسخاء للأمويّين وعملائهم، ولو أنّ أبا ذرّ ساير عثمان وساند سياسته لأعزّه ومنحه الأموال والثراء العريض، لكنّ أبا ذرّ الذي تربّى بهدي الإسلام أبى إلّا أن يسلك الخطّ الرسالي مهما كلّفه الأمر.

وعلى أي حال، فإنّ الإمام لمّا قفل راجعاً من توديع أبي ذرّ أخبره جماعة بغضب عثمان عليه لأنّه لم يحفل بمنعه من توديع أبي ذرّ، وأنّه قد ضرب راحلة مروان الذي أراد أن يمنعه عن ذلك، فبادر إليه عثمان وهو يتميّز من الغيظ قائلاً:

«ما حملك على ردّ رسولي؟».

فأجابه الإمام:

«أَمَّا مَرْوَانُ فَإِنَّهُ اسْتَقْبَلَنِي يَرُدُّنِي فَرَدَدْتُهُ عَنْ رَدِّي، وَأَمَّا أَمْرُكَ فَلَمْ أَرُدَّهُ..».

فصاح بالإمام:

«أولم يبلغك أنّي قد نهيت النّاس عن تشييع أبي ذرّ؟».

فلم يحفل به الإمام وقال له:

«أَوَ كُلُّ ما أَمَرْتَنا بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُرى طاعَةَ اللهِ وَالْحَقَّ فِي خِلَافِهِ اتَّبَعْنا فِيهِ أَمْرَكَ؟!!».

وصاح عثمان :

« أَقِدْ مروان ؟ » .

« وَما أُقِيدُهُ ؟ . . » .

« ضربت بين أُذني راحلته » .

« أَمّا راحِلَتي فَهِيَ تِلْكَ ، فَإِنْ أَرادَ أَنْ يَضْرِبَها كَما ضَرَبْتُ راحِلَتَهُ فَلْيَفْعَلْ ، وَأَمّا أَنا فَوَاللهِ ! لَئِنْ شَتَمَنِي لأَشْتُمَنَّكَ أَنْتَ بِمِثْلِها ، لا أَكْذِبُ فِيهِ وَلا أَقُولُ إِلّا حَقّاً . . » .

وتميّز شيخ الأمويّين وعمدتهم غيظاً ، وراح يقول بعنف للإمام :

« لِمَ لا يشتمك مروان إذ شتمته ، فوالله ! ما أنت عندي بأفضل منه » .

والتاع الإمام عليه السلام حيث ساوى بينه ـ وهو نفس النبيّ صلى الله عليه وآله ، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى ـ وبين مروان الوزغ ابن الوزغ ، الذي لعنه النبيّ صلى الله عليه وآله وهو في صلب أبيه ، فقال عليه السلام له :

« إِلَيَّ تَقُولُ هٰذَا الْقَوْلَ ، وَبِمَرْوانَ تَعْدِلُنِي ؟ . . فَأَنا وَاللهِ ! أَفْضَلُ مِنْكَ ، وَأَبِي أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكَ ، وَأُمِّي أَفْضَلُ مِنْ أُمِّكَ ، وَهٰذِهِ نَبْلِي قَدْ نَثَلْتُها . . »[1] .

أُفٍّ للزمان وتعساً للدهر أن يقابل وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه ، والمجاهد الأوّل في بناء الإسلام بمثل هذه المقابلة ، ويغضّ من شأنه ومقامه .

وانصرف الإمام ملتاعاً حزيناً ، قد طافت به موجات من الألم والحزن على ما لاقاه من عثمان .

---

(١) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام : ١/٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

ومضى أبو ذرّ منفيّاً إلى الربذة ، وهي قفراء قاحلة حتّى توفّي فيها جائعاً ، وفي يد عثمان ذهب المسلمين يهبه لمروان وسائر بني أميّة .

مع عمّار

ونكّل عثمان بعمّار بن ياسر ، صاحب رسول الله ﷺ ، الذي أبلى في الإسلام بلاءً حسناً ، وعُذّب مع أبويه أعنف العذاب وأقساه في سبيل الإسلام .

لقد أنكر عمّار على عثمان حينما استأثر بالسفط الذي فيه الذهب وحلّى به بعض نسائه ، فقال له عثمان :

« أعليّ يابن المتكأد (١) تجترئ عليّ ؟ »

ثمّ أعوز إلى شرطته فحملوه إلى داره وأوسعوه ضرباً حتّى غُشي عليه ، وهو شيخ ، وحُمل إلى بيت السيّدة أمّ سلمى وهو مغشيّ عليه من شدّة الضرب ، وقد فاتته صلاة الظهرين والمغرب ، فلمّا أفاق قام فصلّى العشاء ، وقال :

« الحمد لله ، ليس هذا أوّل يوم أوذينا فيه في الله تعالى » .

وغضبت عائشة ، فأخرجت شعراً من شعر رسول الله ﷺ ، وثوباً من ثيابه ، ونعلاً من نعاله وقالت : « ما أسرع ما تركتم سنّة نبيّكم ، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد ؟ ! » .

وغضب عثمان ، ولم يدر ما يقول (٢) .

وممّا عاناه هذا الصحابي الكبير أنّ كوكبة من الصحابة رفعوا إلى عثمان مذكّرة سجّلوا فيها أحداثه الجسام المنافية للإسلام ، وطالبوه بالاعتدال ، وقد رفع عمّار إليه

---

(١) المتكأد : العظيم البطن ، أو الذي لا يمسك البول .

(٢) أنساب الأشراف : ٥/٤٨ .

المذكّرة ، فاندفع عثمان بحنق على عمّار قائلاً له :

« أعلَيَّ تقدم من بينهم ؟ » .

« إنّي أنصحهم لك » .

« كذبت يابن سميّة » .

لقد نسبه إلى سميّة وهي فخر له ، فإنّها من سيّدات نساء المسلمين ، وأوّل امرأة استشهدت في سبيل الإسلام ، فردّ عليه عمّار:

« أنا والله ابن سميّة وابن ياسر » .

وأمر عثمان جلاوزته بمدّه في الأرض وأخذ يضربه برجليه حتّى أصابه الفتق وأُغمي عليه[1] ، وعمّار هو من أخلص أصحاب الإمام والاعتداء عليه اعتداء على الإمام ، وقد ملئت نفسه الشريفة أسى وحزناً على ما أصاب هذا الصحابي من الاعتداء الآثم ، وممّا لاقاه عمّار من صنوف التنكيل ، وحينما نفى عثمان أبا ذرّ إلى الربذة وجاء نعيه إلى المدينة قال عثمان أمام الصحابة :

« رحم الله أبا ذرّ » .

فأجابه عمّار:

« نعم ، رحمه الله من كلّ أنفسنا » .

وورم أنف عثمان ، وقابل عمّار بأفحش الكلمات التي لا يليق التلفّظ بها لأي إنسان مسلم قائلاً له :

« يا عاضّ أير أبيه ، أتراني ندمت على تسييره ؟ » .

ثمّ أمر غلمانه بالاعتداء على عمّار ، كما أمر بنفيه إلى الربذة ، فلمّا تهيّأ إلى

---

(١) أنساب الأشراف : ٤٩/٥ . العقد الفريد : ٢٧٢/٢ .

الخروج أقبلت بنو مخزوم إلى الإمام أمير المؤمنين في أن يتوسّط إلى عثمان في شأنه ، فانطلق إليه وقال :

« اتّق الله ، فإنّك سيّرت رجلاً صالحاً من المسلمين ، فهلك في تسييرك ، ثمّ أنت الآن تريد أن تنفي نظيره ».

فثار عثمان وقال :

« أنت أحقّ بالنفي منه ».

« رم إن شئت ذلك ».

واجتمع المهاجرون فكلّموا عثمان ، فعفا عن عمّار[1] وقد تألّم الإمام ، وقد طافت به موجات من الأسى والحزن على انتهاك حرمته ، والاعتداء على خلّص أصحاب رسول الله ﷺ .

وممّن نكّل بهم عثمان : عبدالله بن مسعود الذي كان أشبه النّاس برسول الله ﷺ في هديه ، وكان أثيراً عند الإمام عليه السلام ،وقد أثنى عليه قوم عند الإمام فأبدهم فبما مدحوه ، وقال في حقّه :

«أَقُولُ فيهِ مِثْلَ ما قالُوا ، وهُو أَفْضَلُ مَنْ قَرأَ الْقُرْآنَ ، وَأَحَلَّ حَلالَهُ ، وَحَرَّمَ حَرامَهُ ، فَقيهٌ في الدّينِ ، عالِمٌ بِالسُّنَّةِ».

استعمله عمر على الكوفة وأميناً على بيت المال ، فكان يفقّه أهل الكوفة ويعلّمهم كتاب الله ، ويهديهم للتي هي أقوم ، ولمّا ولي أمر المسلمين عثمان عزل واليها سعد بن أبي وقّاص واستعمل مكانه الوليد بن عقبة الذي عُرف بالفسق والفجور ، وأراد أن يستقرض من بيت المال فأبى أن يدفع إليه من المال شيئاً ،

---

(١) أنساب الأشراف : ٥/٥٤ . تاريخ اليعقوبي : ٢/١٥٠ . مستدرك الحاكم : ٣/٣١٥ .

واستقال من منصبه، وقفل راجعاً إلى المدينة، وقد ودّعه الكوفيّون وحزنوا على فراقه، ولمّا انتهى إلى المدينة كان عثمان على المنبر يخطب، فلمّا رآه قال منددّاً به:

«قدم عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلخ».

فردّ عليه ابن مسعود:

«لست كذلك، ولكنّي صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان..».

وأمر عثمان جلاوزته بإخراجه من المسجد، فأُخرج بعنف.

وقام إليه عبدالله بن زمعة فضرب به الأرض، وقيل: بل احتمله بحمرم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه، فضرب به الأرض[1].

وثار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فصاح بعثمان:

«**يا عُثْمانُ، أَتَفْعَلُ هٰذا بِصاحِبِ رَسُولِ اللهِ بِقَوْلِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ؟..**».

فقال عثمان:

«ما بقول الوليد فعلت؟ ولكن وجّهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة، فقال له: إنّ دم عثمان حلال».

فردّ عليه الإمام:

«**أَحَلْتَ عَنْ زَبِيدٍ عَلىٰ غَيْرِ ثِقَةٍ..**»[2].

وحمل الإمام ابن مسعود إلى منزله، فقام برعايته حتّى أبل من مرضه، وقاطعه عثمان، كما قطع راتبه، ومرض هذا الصحابي الجليل، فدخل عليه عثمان عائداً

---

(١) أنساب الأشراف: ٣٦/٥.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام: ٢٧٥/١.

فقال له :

« ما تشتكي ؟ » .

« ذنوبي ؟ » .

« ما تشتهي ؟ » .

« رحمة ربّي » .

« أدعو لك طبيباً ؟ » .

« الطبيب أمرضني » .

« آمر لك بعطائك ؟ » .

« منعتني عنه وأنا محتاج إليه ، وتعطينيه وأنا مستغني عنه ! » .

« يكون لولدك » .

« رزقهم على الله ! » .

« استغفر لي يا أبا عبدالرحمن » .

« اسأل الله أن يأخذ لي منك بحقّي . . »[1] .

وانصرف عثمان ولم يظفر برضاه ، ولمّا ثقل حاله أوصى أن لا يصلّي عليه عثمان ، ولمّا انتقل إلى دار الحقّ قام أصحابه فدفنوه بالبقيع ، ولم يحضر عثمان جنازته .

وقد كوت قلب الإمام سياسة عثمان ومعاملته السيّئة لأشهر أصحاب النبيّ ﷺ ، ومضافاً لذلك سوء سياسته الماليّة التي أشاعت الفقر والبؤس عند النّاس ، وخصّت بني أميّة وآل أبي معيط بالأموال الهائلة التي نهبت من بيت مال المسلمين .

---

(١) حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام : ١ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

الثورة على عثمان

وكان من الطبيعي أن يثور المسلمون في جميع أمصارهم على عثمان بعد ما فشلت مخطّطاته السياسيّة ، وأمعن ولاته وعمّاله في ظلم النّاس وإرغامهم على ما يكرهون .

وقد توافدت جمهرة من الثوّار على المدينة ، وأحاطوا بعثمان ، فأرسل إليهم المغيرة بن شعبة فصاحوا به :

« يا أعور ، وراءك . يا فاجر ، وراءك . يا فاسق ، وراءك » .

وأرسل إليهم ثانياً عمرو بن العاص ، فقالوا له :

« ارجع يا عدوّ الله ، ارجع يابن النابغة ، فلست عندنا بأمين ولا مأمون » .

وعلم عثمان أن لا ملجأ إليه إلّا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فاستجار به ، وأعطاه عهداً بأن يسير على كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ، فمضى الإمام إليهم ، وعرض عليهم ما التزم به عثمان من الاستجابة لمطالبهم ، فأذعنوا لمقالة الإمام ، وأقبل وجوههم إلى عثمان ومعهم الإمام فعاتبوه على أعماله ، فاستجاب لهم ، وطلبوا منه أن يكتب لهم كتاباً يلتزم فيه بأن يسير على كتاب الله وسنّة نبيّه ، ويوفّر الفيء للمسلمين ، فأجابهم إلى ذلك ، وكتب هذا الكتاب :

« هذا كتاب من عبدالله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين ، إنّ لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه ، يعطى المحروم ، ويؤمن الخائف ، ويردّ المنفي ، ولا يجمر في البعوث ، ويوفّر الفيء ، وعليّ بن أبي طالب ضمين للمؤمنين ، وعلى عثمان الوفاء بما في هذا الكتاب .

وشهد فيه كلّ من الزبير بن العوّام ، وطلحة بن عبيدالله ، وعبدالله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، وأبو أيّوب خالد بن زيد . كتب في ذي القعدة

سنة (٣٥هـ) »[١].

وأخذ القوم الكتاب وانصرفوا ، وطلب الإمام عليه السلام من عثمان أن يخرج للنّاس ويعلن لهم ما تمّ عليه الاتّفاق ، وفعل عثمان ذلك ، وأعطى النّاس عهداً أن يسير فيهم بكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ، ويوفّر لهم الفيء ، ولا يؤثر به أحداً من أقربائه ، ورجع المصريّون إلى بلادهم ، ودخل مروان على عثمان فقال له :

« أعْلِمِ النّاس أنّ أهل مصر قد رجعوا ، وأنّ ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً ، فإن خطبتك تسير في البلاد قبل أن ينجلب النّاس عليك من أمصارهم فيأتيك من لا تستطيع دفعه » .

وامتنع عثمان أوّلاً ، إلّا أنّه استجاب له أخيراً ، فإنّه كان بيده كالميّت بيد غاسله ، لا رأي له ، فخرج وخطب النّاس قائلاً :

« أمّا بعد . . إنّ هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلمّا تيقّنوا أنّه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم . . » .

ونقم المسلمون عليه ذلك ، فقد أنكر عليه ابن العاص قائلاً :

« اتّق الله يا عثمان ، فإنّك قد ركبت المهابير[٢] ، وركبناها معك ، فتب إلى الله عزّ وجلّ نتب معك » .

فزجره عثمان وصاح به :

« يابن النابغة ، قملت والله جبّتك منذ تركتك من العمل . . » .

وارتفعت أصوات الاستنكار من جميع جنبات المسجد بلهجة واحدة :

« اتّق الله يا عثمان » .

---

(١) حياة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام : ١ / ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) المهابير : المهالك .

« لقد نقض عثمان ما عاهد عليه المسلمين ، وقد عرض للنقد والنقمة من جميع الأوساط استجابة لمروان الذي سيطر عليه فلم تعد إليه أيّة إرادة للسيطرة على نفسه .

الإجهاز عليه

وبعد أحداث جرت بين الثوّار وعثمان عرضنا لها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن عليه السلام) لم يلتزم عثمان بالشروط التي التزم بها للثوار ، فأحاطوا بقصره وهم يهتفون بسقوطه ، ويطالبونه بالاستقالة من منصبه ، وفي تلك اللحظات الرهيبة خرج إليهم مروان فشتمهم ونال منهم ، وكان فيما قال لهم :

« ما شأنكم كأنّكم قد جئتم لنهب ، شاهت الوجوه ، تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا » .

وألهبت هذه الكلمات النابية نار الثورة في النفوس ، فإنّ مثل هذا الموقف الملتهب يجب أن تستعمل فيه الكلمات المعسولة ويبتعد عن العنف .

وعزم الثوّار على قتل عثمان ، فاستنجد بالإمام فقال له :

« أَما رَضِيتَ مِنْ مَرْوانَ ، وَلَا رَضِيَ مِنْكَ إِلَّا بِتَحَرُّفِكَ عَنْ دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ ، مِثْلَ جَمَلِ الظَّعِينَةِ يُقادُ حَيْثُ يَشاءُ رَبُّهُ ، وَاللهِ ! ما مَرْوانُ بِذِي رأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ ، وَأَيْمُ اللهِ لَأَراهُ يُوْرِدُكَ وَلَا يُصْدِرُكَ ، وَما أَنا عائِدٌ بَعْدَ مَقامِي هٰذا لِمعاتَبَتِكَ ، أَذْهَبْتَ شَرَفَكَ ، وَغَلَبْتَ عَلىٰ أَمْرِكَ . . . » .

عجيب أمر عثمان كيف سيطر عليه مروان ، فأورده مورد الهلكة وهو لا يشعر بذلك .

وعلى أي حال ، فقد هجم على عثمان محمّد بن أبي بكر فشهر السيف في

وجهه ، وقال له بغضب :

« على أي دين أنت يا نعثل ؟ » .

« على دين الإسلام ، ولست بنعثل ، ولكن أمير المؤمنين » .

« غيّرت كتاب الله تعالى » .

« كتاب الله بيني وبينكم » .

وأخذ محمّد بلحيته وقال له : « إنّا لا نقبل منها يوم القيامة إذ تقول : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾[1] » .

وهجم عليه القوم فأردوه قتيلاً يتخبّط بدمه ، وتركوه جثة هامدة لم يواروه ولم يسمحوا لأحد بمواراته ، وتكلّم بعض خواصّه مع الإمام أمير المؤمنين فتوسّط في شأنه ، فأذِنوا في ذلك ، ولكنّهم لم يسمحوا أن يدفن في البقيع ، فدفنوه في حشّ كوكب وهو اسم لبستان كانت اليهود تدفن فيها موتاهم .

وانتهت حكومة عثمان وقد جرّت للمسلمين الفتن والمصاعب ، وألقتهم في شرّ عظيم ، وقد امتحن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كأشدّ ما يكون الامتحان في حكومة عثمان التي انتهت بالشرّ والفتن ، فقد اتّخذ الأمويّون قتله ورقة رابحة لأهدافهم ، والعبث بالحياة الاجتماعيّة ، وتحميل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المسؤوليّة في قتله ، ونجم من ذلك سفك دماء المسلمين بغير حقّ وشيوع الفتنة والخلاف فيما بينهم ، وسنعرض لذلك .

حكومة الإمام

ولم يكن للإمام رغبة في الحكم أو طمع في الخلافة ، فقد كان بمعزل تامّ عن

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٦٧ .

جميع مباهج الحياة وزينتها ، وليس له أي إرب في سلطان المسلمين والإمرة عليهم . نعم ، كانت له رغبة في ذلك للأمور التالية .

الأوّل : ليرى المجتمع حقيقة الإسلام وواقعه ومدى اهتمامه بمصالح المسلمين ، فيوفّر لهم حياة سعيدة في ظلّ نظام آمن مستقرّ ، ويقيم العدالة الكبرى التي يريدها الله تعالى لعباده ، فلا مظلوم ولا محروم ولا بائس ولا فقير ولا جائع ، وتوزّع خيرات الله تعالى على عباده بالسواء ، فلا يختصّ بها فريق دون فريق ، ولا قوم دون آخرين ، فالقريب والبعيد في نعمة الإسلام ورحمته سواء ، وقد طبّق ذلك في أيّام حكومة الإمام .

الثاني : ليرى النّاس أن لا طمع للإمام في الحكم ، فليس الحكم عنده مغنماً لنيل الشهوات كما هو الحال عند عشّاق الملك والسلطان ، الذين يتقاتلون على الظفر به تحقيقاً لأطماعهم ، لقد زهد الإمام في الحكم ، وزهد في جميع مظاهر الحياة الدنيا ، فلم يتّخذ قصراً ينعم فيه ، ولا عيشاً رغيداً ولا لباساً أنيقاً ولا غير ذلك ، وعاش عيشة الفقراء والبؤساء .

الثالث : أراد أن يكون حكمه منهجاً لمن يتولّى شؤون المسلمين من بعده ليسير بهديه ، ويطبّق معالم فلسفته في الحكم .

لقد فضح الإمام بسيرته في أيّام حكمه الملوك والولاة الذين أنفقوا أموال المسلمين على رغباتهم وشهواتهم ولياليهم الحمراء التي عاشوها .

لقد توفّي الإمام ولم يملك من الدنيا إلّا الثوب الذي على بدنه ، وقد توفّي الملك هارون وخلّف أربعة آلاف عمامة مرصّعة بالأحجار الكريمة ، وهكذا كان غيره من ملوك الأمويّين والعبّاسيّين ، لقد فضحهم الإمام عليه السلام بسيرته وسلوكه .

وعلى أيّة حال ، فليس للإمام عليه السلام أيّة رغبة أو عشق إلى السلطة ، وبعد مقتل عثمان بن عفّان اجتمع المهاجرون والأنصار ، والوفود التي أطاحت بحكومة

عثمان فقالوا له:

« يا أبا الحسن، إنّ هذا الرجل ـ يعني عثمان ـ قد قتل ولا بدّ للنّاس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحقّ بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ غيرك.

فامتنع الإمام من إجابتهم وأظهر لهم زهده في الحكم قائلاً:

« **لَا حاجَةَ لِي فِي أَمْرِكُم، فَمَن اخْتَرْتُمْ رَضِيتُ بِهِ..** ».

فهتفوا جميعاً:

« ما نختار غيرك ».

وكثر إصرار الجماهير وإلحاحهم على الإمام وهو مصر على عدم إجابتهم، ورفض بيعتهم، وعقدت القوّات المسلّحة اجتماعاً خاصّاً عرضت فيه الأحداث الخطيرة التي تواجه الأُمّة إن بقيت بلا قائد يدبّر شؤونها، وقرّرت إحضار المدنيّين وإرغامهم على انتخاب الخليفة، قائلين لهم:

« أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وحكمكم جائز ـ أي نافذ ـ على الأُمّة، فانظروا رجلاً تنصبونه، ونحن لكم تبع، وقد أجّلناكم يومكم، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلنّ عليّاً وطلحة والزبير، وتذهب من أُضحية ذلك أُمّة من النّاس »[1].

وفزع المدنيّون إلى الإمام أمير المؤمنين وهم يهتفون:

« البيعة.. البيعة ».

وامتنع الإمام من إجابتهم، فأخذوا يتوسّلون ويلحّون عليه قائلين:

« أما ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من أبناء القرى؟ ».

فأجابهم الإمام:

---

(١) تاريخ ابن الأثير: ٢/٨٠.

« دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي ... ».

ثمّ أعرب لهم عن سبب إحجامه عن أجابتهم قائلاً:

« إِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ »[1].

لقد كان الإمام عالماً بالأحداث الخطيرة التي يواجهها إذا قَبِلَ خلافتهم من مناهضة عمّال عثمان وولاته وسائر القوى النفعيّة التي لا تقيم أي وزن لمصالح الأُمّة، وعلى رأس هذه القوى القرشيّون الذين أُترعت نفوسهم بالبغض للإمام.

ولم تقنع الجماهير بذلك، فأجابهم الإمام:

« إِنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً ».

وصاحوا بلهجة واحدة:

« ما نحن بمفارقيك حتّى نبايعك ».

ووصف الإمام اجتماع النّاس عليه مطالبين بالبيعة له بقوله:

« فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ[2] إِلَيَّ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ[3]، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي

---

(١) شرح نهج البلاغة / محمّد عبده: ١/١٨٢.

(٢) عرف الضبع: الشعر الكثير الذي يكون على عنق الضبع، يضرب به المثل في كثرة ازدحام الناس.

(٣) شقّ عطفاي: أراد به ما أصابه من الخدش من كثرة ازدحام الناس.

كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ[١]».

وأجّلهم الإمام إلى صباح اليوم الثاني، وهو وجل بما سيواجهه من تمرّد القوى النفعيّة، وما تعمله قريش من السدود أمام متطلّباته في إصلاح المجتمع.

وبات المدنيّون ليلتهم من غير هدوء واطمئنان، وحينما اندلع نور الصبح أقبل الإمام إلى الجامع أمام الجماهير الحاشدة وقد استقبلته بالهتافات المرحّبة به، واعتلى الإمام المنبر وقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ هٰذا أَمْرُكُمْ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ حَقٌّ إِلَّا مَنْ أَمَّرْتُمْ، وَقَدِ افْتَرَقْنَا بِالْأَمْسِ وَكُنْتُ كَارِهاً لِأَمْرِكُمْ، فَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ أَكُونَ عَلَيْكُمْ، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي أَنْ آخُذَ دِرْهَماً دُونَكُمْ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَعَدْتُ لَكُمْ، وَإِلَّا فَلَا آخُذُ عَلَىٰ أَحَدٍ».

وارتفعت أصوات الجماهير وهي تعلن الطاعة والرضا، فقال عليه السلام:

«اللّٰهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم».

وتدافعت الجماهير كالموج المتلاطم إلى بيعة الإمام، وأوّل من بايعه طلحة بيده الشلّاء والتي سرعان ما نكث بها عهد الله تعالى[٢]، وكانت البيعة في يوم السبت لأحد عشر ليلة بقيت من ذي الحجّة[٣].

وبايعه عرب الأمصار وأهل بدر، والأنصار عامّة[٤].

ولم يظفر أحد بمثل هذه البيعة التي كانت عن رضا وفرح وثقة وإيمان.

---

(١) ربيضة الغنم: الطائفة الرابضة، وهو وصف لجثوم الناس حوله.

(٢) العقد الفريد: ٣/٩٣.

(٣) أنساب الأشراف: ١/٢٢، القسم الأوّل.

(٤) أنساب الأشراف: ٥/٢٢.

وجوم القرشيّين

وكان من الطبيعي أن تستقبل قريش وسائر القوى المنحرفة عن الحقّ حكومة الإمام بكثير من الاضطراب والقلق ؛ لأنّ الإمام قد وتر الكثير منهم في سبيل الإسلام حينما وقفوا محاربين لرسول الله ﷺ ، ومكذّبين لدعوته .

وبالإضافة لذلك فإنّ العصابات القرشيّة التي منحها عثمان الامتيازات الخاصّة قد استولت بغير حقّ على أموال المسلمين ، وأيقنت أنّها ستصادر منهم .

في ظلّ حكومة الإمام

ومن الطبيعي أن تصاب هذه القوى بالذهول والاضطراب من حكومة الإمام ، التي تبنّت العدل بجميع رحابه ومفاهيمه ، وأن تصادر الأموال المغتصبة ، وقد أدلى الوليد ـ وهو من عيون الأمويّين ـ بذلك في حديثه مع الإمام قال :

« إنّك قد وترتنا جميعاً ، أمّا أنا فقتلت أبي صبراً يوم بدر ، وأمّا سعيد فقتلت أباه يوم بدر ، وكان أبوه نوراً لقريش ، وأمّا مروان فشتمت أباه ، وعبت على عثمان حين ضمّه إليه ، فنبايع على أن تضع عنّا ما أصبنا ، وتعفو عمّا في أيدينا ، وتقتل قَتَلة صاحبنا » .

وأجابه الإمام على ضوء الكتاب والسنّة عمّا عرضه عليه قائلاً :

« أَمّا ما ذَكَرْتَ مِنْ وَتْرِيْ إِيّاكُمْ فَالْحَقُّ وَتَرَكُمْ . وَأَمّا وَضْعِي عَنْكُمْ عَمّا فِي أَيْدِيكُمْ فَلَيْسَ لِي أَنْ أَضَعَ حَقَّ اللهِ عَنْكُمْ وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ .

وَأَمّا إِعْفائِي عَمّا فِي أَيْدِيكُمْ فَما كَانَ لِلهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ فَالْعَدْلُ يَسَعُكُمْ .

وَأَمّا قَتْلِي قَتَلَةَ عُثْمانَ فَلَوْ لَزِمَنِي قِتالُهُمْ الْيَوْمَ لَزِمَنِي قِتالُهُمْ غَداً ، وَلَكِنْ لَكُمْ أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلىٰ كِتابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، فَمَنْ ضاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فالْباطِلُ عَلَيْهِ

أَضْيَقُ ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَالْحَقُوا بِمَلَاحِقِكُمْ . . »[١].

ولا يتوقّع من الإمام الممثّل الأوّل لقيم الإسلام أن يجيب بغير هذا الجواب ، فيوارب ويخادع ويجلب القوى المعارضة له بالتسامح والغضّ عمّا اقترفوه من الانحرافات والسلوك فيما لا يرضي الله تعالى .

لقد كانت سياسة الإمام صريحة وواضحة ، وهي السعي في إقامة العدل والحقّ ، وتدمير الظلم والجور ، وبسط الإسلام على حقيقته النازلة من ربّ العالمين .

إجراءات مهمّة

اتّخذ الإمام فور تسلّمه السلطة إجراءات بالغة الأهمّية لدعم الحقّ ، وإشاعة العدل بين النّاس ، وقد فزع القرشيّون الذين استأثروا بفيء المسلمين وقوّتهم ، وهذا عرض سريع لبعض تلك الاجراءات :

مصادرة الأموال المنهوبة

أصدر الإمام أوامره الحاسمة بمصادرة الأموال التي نهبت من أموال المسلمين ، والتي منها :

أموال عثمان

وصودرت الأموال المكدّسة عند عثمان حتّى سيفه ودرعه ؛ لأنّه لا يملك شيئاً منها ، وقد أثار ذلك غضب الأمويّين وسخطهم ، وقد وجّه الوليد عتاباً لبني هاشم بهذه الأبيات :

بَنِي هاشِمٍ رُدّوا سِلاحَ ابنِ اخْتِكُمْ ... ولا تَنهَبوهُ لا تَحِلُّ مَناهِبُه

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/١٥٥.

بَـني هـاشِمٍ كَـيفَ الهَـوادَةُ بَـينَنا ... وعِـنـدَ عَـلـيٍّ دِرعُـهُ ونَـجائِبُه
بَـني هـاشِمٍ كَـيفَ التَّـوَدُّدُ مـنكُمُ ... وبَـزٌّ ابـنُ أروى فـيكُمُ وحَـرائِـبُه
بَـني هـاشِمٍ إلّا تَـرُدّوا فـإنَّنا ... سَـواءٌ عَـلَينا قـاتِلاهُ وسـالِبُه
بَـني هـاشِمٍ إنّـا ومـا كـانَ مِـنكُمُ ... كصَدعِ الصَّفا لا يَشعَبُ الصَّدعُ شاعِبُه
قَـتَلتُم أَخـي كَـيما تَكـونوا مكـانَهُ ... كَما غَدَرَتْ يَوماً بِكِسرىٰ مَرازِبُه[1]

وكتب ابن العاص إلى معاوية رسالة جاء فيها:

«ما كنت صانعاً فاصنع إذا قشّرك ابن أبي طالب من كلّ مال تملكه كما تقشّر عن العصا لحاها»[2].

وأوجس طلحة والزبير ومن شابههما ممّن أقطعهم عثمان ووهبهم الأموال الطائلة من مصادرتها، فلذا ساد فيهم الخوف والذعر.

عزل الولاة

ومضى الإمام في سياسته الإصلاحيّة يدكّ عروش الظالمين من الذين أرغموا المسلمين على ما يكرهون، فقد أصدر أوامره بعزل ولاة عثمان واحداً بعد واحد؛ لأنّ في إبقائهم في جهاز الحكم إقراراً للظلم والطغيان، فعزل في الوقت معاوية بن أبي سفيان، وقد نصحه جماعة في إبقائه على ولايته، فأبى من إبقاء هذا الذئب الجاهلي والياً على الشام؛ لأنّ في بقائه لحظة واحدة إقراراً للظلم والاستبداد، وهذا ممّا يتنافى مع سلوك الإمام وهديه.

---

(١) موسوعة الغدير: ١/٢٨٨.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ١/٣٨٦.

المساواة بين المسلمين

من المخطّطات السياسيّة للإمام التي سارع إلى تنفيذها: المساواة بين جميع المسلمين في العطاء وغيره، وقد عذله جماعة عنها حينما تقلّل جيشه، وطلبوا منه أن يفضّل العرب على الموالي، وقريشاً على العرب، فأبى، وقال:

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ!

أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ. وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ».

ولا يتوقّع من الإمام غير هذا، فإنّه إنّما تقلّد الحكم لإقامة العدل لا لغرض آخر من أغراض الدنيا الفانية.

إنّ المساواة التي تبنّاها الإمام تهدف إلى إيجاد مجتمع لا تطغى فيه العنصريّات والقوميّات، ولا يوجد فيه بائس أو محروم.

بسط العدل

من أهمّ القيم الإسلاميّة التي تبنّاها الإمام عليه السلام بسط العدل وإشاعته بين النّاس، وهو أوّل حاكم في الإسلام بنى بيتاً للمظالم يضع فيه المظلوم والمعتدى عليه رقعة يذكر فيها ما أصابه من مكروه أو أذى، وكان عليه السلام بنفسه يتولّى الإشراف عليها،

فيأخذ بحقّه ، ويدفع عنه ما أصابه من أذى أو غبن .

وقد بسطنا الكلام في عدله ، وذكرنا صوراً مشرقة من ذلك العدل الذي لم يعرف له مثيل في كتابنا موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

الحريّات العامّة

من البرامج المشرقة في سياسة الإمام عليه السلام أنّه منح الحريّات العامّة لجميع المواطنين ، والتي منها :

١ ـ حريّة القول بشرط أن لا يكون فيه مساس بالدين الإسلامي .

٢ ـ حريّة النقد للحكم إذا كان على وفق الشريعة .

٣ ـ حريّة المتخلّفين عن البيعة ، فقد تخلّف عن بيعته سعد بن أبي وقّاص ، وعبدالله بن عمر ، وحسّان بن ثابت ، والنعمان بن بشير ، وغيرهم ، وهؤلاء قد انحرفوا عن الحقّ ، ومالوا إلى الباطل ، ولم يعاقبهم الإمام ، وتركهم ورأيهم ، ولم يعاملهم كما عامل أبو بكر الإمام حينما تخلّف عن بيعته .

هذه بعض ألوان الحريّة التي منحها الإمام للمسلمين ، وقد ذكرنا صوراً أخرى لها في كتابنا حياة الإمام الحسن عليه السلام .

التمرّد على حكومة الإمام

من المؤسف أنّ بعض الصحابة قد تعرّضوا للفتن وتباعدوا عن الحقّ ، وغرّتهم الدنيا ، فأغرقوا الأمّة بالمحن والبلاء ، ومن هؤلاء طلحة والزبير ، ومعهما عائشة وسائر الأمويّين والقرشيّين ، فقد أُترعت نفوسهم حقداً وكراهية للإمام ، ووصف ابن أبي الحديد مدى اضطرابهم بقوله :

« كأنّها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمّه من إظهار ما في النفوس ،

وهيجان ما في القلوب حتّى انّ الأخلاف من قريش ، والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله »[١].

لقد امتحن الإمام امتحاناً عسيراً من قريش ، فقد ورمت أُنوفهم وانتفخ سحرهم منه ، وقد أعرب الإمام في كثير من أحاديثه عن مدى استيائه منهم .

قال عليه السلام :

« مَالِي وَلِقُرَيْشٍ! وَاللهِ! لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ ، . . . وَاللهِ! لَأُبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ! فَقُلْ لِقُرَيْشٍ : فَلْتَضِجَّ ضَجِيجَهَا » .

لقد وجدت قريش عليك يا داعي الله لأنك حطّمت أوثانهم وأصنامهم ، وأبدت بسيفك أعلامهم ، ولمّا دخلوا في دين الإسلام كرهاً انطوت ضمائرهم على بغضك ، وأنّك ستقاتلهم مفتونين عن دين الله تعالى ، ضالّين عن الطريق القويم .

العصيان المسلّح

من الرزايا التي امتحن بها إمام المتّقين وسيّد الأوصياء إعلان القوى الضالّة الحرب عليه ، فقد نخر الحسد قلوبهم فراحوا يجوبون في الأمصار وشعارهم المطالبة بدم عثمان بن عفّان ، وهم الذين أجّجوا نار الثورة عليه ، فعائشة هي التي أفتت بقتله ، وقالت : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » ، وقد غادرت المدينة واتّجهت إلى مكّة ، وقد حفّزت الجماهير على قتله ، وأخذت تترقّب الأحداث تنتظر ما حدث من أمر عثمان ، والتقى بها رجل من أخوالها يقال له : « عبيدة » ، وكان قادماً من

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد : ١١/١١٤ .

المدينة ، فأسرعت قائلة :

ـ « مهيم »[١] .

ـ « قتلوا عثمان » .

« ثمّ صنعوا ماذا ؟ » .

« اجتمعوا على بيعة عليّ ، فجازت بهم الأُمور إلى خير مجاز » .

وانهارت قواها ، فهتفت وهي مغيظة ، وبصرها يشير إلى السماء ثمّ ينخفض فيشير إلى الأرض قائلة بحرارة :

« والله ! ليت هذه أطبقت على هذه ، إن تمّ الأمر لابن أبي طالب قتل عثمان مظلوماً ، والله ! لأطلبنّ بدمه » .

فأجابها عبيد بسخرية قائلاً :

« ولِمَ ؟ فوالله إنّ أوّل من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر » .

لماذا يا أُمّ المؤمنين هذا الجزع حينما آلت الخلافة إلى أخي رسول الله ، وباب مدينة علمه ؟ هل استأثر الإمام بالحكم واتّخذه مغنماً له حتّى تعلنين السخط على حكومته ؟

وأجابت عائشة ابن خالها تعتذر عن هذا التهافت في كلامها قائلة :

« إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأوّل » .

هل كانت عائشة حاضرة توبة عثمان ، وهي قبل قليل أباحت دمه ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

---

(١) كلمة استفهام من معانيها : ما وراءك ؟

مع طلحة والزبير

واستبان لطلحة والزبير أنّهما لن يصيبا مغنماً من حكومة الإمام، فإنّها حكومة المظلومين والمضطهدين لا لقريش وأذنابهم، ولا يستأثر بخيرات الأمّة أحد دون أحد، وإنّما هي للجميع على حدّ سواء، فصمّما على الخروج من المدينة والالتحاق بعائشة والاستعانة بالقرشيّين للإطاحة بحكومة الإمام، فأقبلا إليه قائلين:

- « ائذن لنا يا أمير المؤمنين ».

- « **إلىٰ أيْن ؟** ».

- « نريد العمرة ».

فرمقهما بطرفه ولمس في وجهيهما الغدر والخيانة، فقال لهما برنّة المستريب:

« **وَاللهِ ما الْعُمْرَةَ تُريدانِ!! بَلِ الْغَدْرَةَ وَنَكْثَ الْبَيْعَةِ** ».

وأقسما بالأيمان المغلّظة أنّهما لا يريدان نكث البيعة، وإنّما يريدان العمرة.

لقد تذرّعا بالأيمان الكاذبة في سبيل أطماعهما الرخيصة التي شقّت عصا المسلمين، وأخلدت لهم المحن والكوارث، وطلب الإمام منهما أن يعيدا البيعة فأعاداها بلا تردّد، وانهزما كأنّما قد خلصا من سجن.

والتحق الشيخان بعائشة، وقد وجداها بركاناً ينفجّر غيظاً وغضباً من حكومة الإمام، فاتّخذاها قاعدة وركناً وثيقاً للإطاحة بحكم الإمام، وقد تذرّعوا جميعاً بدم عثمان بن عفّان، واتّخذوه ورقة رابحة لإعلان العصيان، وقد خطبت عائشة في مكّة وكان خطابها أوّل شرارة للثورة على حكومة الإمام التي هي حكومة المضطهدين والفقراء والبائسين. إنّها الحكومة التي تمثّل قيم الإسلام ومبادئه. وأخذت عائشة تستنهض همم الرجال، وتستعين بالغرباء لمحاربة أخي رسول الله والمنافح عنه في جميع المشاهد والمواقف متّخذة من دم عثمان الذي أفتت بكفره ووجوب قتله

ذريعة لمحاربة الحكومة الشرعيّة التي انتخبها المسلمون عن رضىً واطمئنان لا فلتة ولا شورى مزيّفة.

الزحف إلى البصرة

ولمّا انضم لعائشة السذّج والبسطاء وعملاء الحكم المباد وولاته الذين نهبوا أموال المسلمين وقدّموها لعائشة فسلّحت بها العصابات التي خدعتها وزحفت بهم إلى البصرة، وقد اعتلت على جملها المسمّى بـ« عسكر »، وأخذت تجدّ في السير لا تلوي على شيء حتّى اجتازت على مكان يسمّى « الحوأب » فتلقّتها كلاب الحيّ بهرير وعواء، وراحت عائشة تسأل محمّد بن طلحة قائلة:

« أي ماء هذا ؟ ».

« ماء الحوأب ».

فذعرت وقالت:

« ما أراني إلّا راجعة ».

« لِمَ يا أُمّ المؤمنين ؟ ».

« سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: « **كَأَنِّي بِإِحْداكُنَّ قَدْ نَبَحَتْها كِلَابُ الْحَوْأَبِ، وَإِيّاكِ أَنْ تَكُونِي يا حُمَيْراء** »[1].

« تقدّمي رحمك الله، ردعي هذا القول ».

---

(١) روى ابن عبّاس عن النبيّ أنّه قال يوماً لنسائه وهنّ جميعاً عنده: « **أيّتكنّ صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلّهم في النار، وتنجو بعد ما كادت** ». جاء ذلك في كلّ من شرح النهج: ٢/٢٩٧. تاريخ ابن كثير: ٦/٢١٢. الخصائص للسيوطي: ٢/١٣٧.

وجاء في الاستيعاب: أنّ هذا الحديث من علائم النبوّة.

ولم تسمع عائشة كلام ابن طلحة ، وأصرّت على الرجوع ، وأسرع نحو طلحة والزبير فأخبرهما بذلك ، فأقبلا يلهثان خوفاً من أن تفسد مصالحهما ، فالتمسا منها العدول عن عزمها ، فجاءوا لها بشهود زور فشهدوا أنّ هذا الماء ليس ماء الحوأب ، وهي أوّل شهادة زور تقام في الإسلام[1] ، فاستجابت ومضت تفرد الجيوش حتّى انتهت إلى البصرة ، فاستقبلها أبو الأسود ممثّلاً لعثمان بن حنيف عامل الإمام على البصرة فقال لها :

« ما أقدمك يا أمّ المؤمنين ؟ » .

« أطلب بدم عثمان » .

فاستغرب منها وراح يقول :

« ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد » .

« صدقت ، ولكنّهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت استنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم » .

وردّ عليها أبو الأسود هذا المنطق الرخيص قائلاً :

« ما أنت من السوط والسيف ، إنّما أنت حبيبة رسول الله ﷺ ، أمرك أن تقرّي في بيتك ، وتتلي كتاب ربّك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنّ الطلب بالدماء ، وأنّ عليّاً لأوْلى منك ، وأمسّ رحماً ، فإنّهما ابنا عبدمناف » .

وأصرّت على غيّها وقالت :

« لست منصرفة حتّى أمضي لما قدمت إليه ، أفتظنّ أبا الأسود أنّ أحداً يقدم على قتالي ؟ » .

« أما والله لتقاتلنّ قتالاً أهونه الشديد » .

---

(١) مروج الذهب : ٢/٣٤٢ .

وأصرّت على ما ذهبت إليه من محاربة أخي رسول الله ، ومضى أبو الأسود صوب الزبير فكلّمه بلين قائلاً له :

« يا أبا عبدالله ، عهد النّاس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذ بقائم سيفك تقول : لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام من ذاك ؟ » .

لقد ذكّره بماضي ولائه للإمام عليه السلام ، فأجابه الزبير :

« نطلب بدم عثمان » .

وهو اعتذار مهلهل غير خاضع للمنطق ، وفاقد للصواب ، وفكّر الزبير قليلاً أمام منطق أبي الأسود فاستجاب لنصيحته ، إلّا أنّه طلب منه مواجهة طلحة ، وعرض الأمر عليه ، ومضى أبو الأسود مسرعاً إلى طلحة وكلّمه ببالغ حجّته ، فوجد ضميراً متحجّراً لم يلج فيه أي بصيص من النور ، فقد أصرّ على الغيّ والعدوان ، ولم يستجب لنداء الحقّ .

وانطلق أبو الأسود وهو خافق في سفارته ، فأخبر ابن حنيف بمقالة القوم ، وإصرارهم على الحرب . . وبعد صراع بين ابن حنيف وبين القوم عقد الفريقان هدنة بينهما بإيقاف الحرب إلى أجل مسمّى ، إلّا أنّ طلحة والزبير خرقا الهدنة ، وهجمت جيوشهم على ابن حنيف ، واحتلّوا البصرة ، ونهبوا ما في بيت المال ، ونكّلوا به ، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه .

زحف الإمام إلى البصرة

ولمّا علم الإمام بتمرّد طلحة والزبير ، واحتلالهما لمدينة البصرة ، زحف بجيشه للقضاء على هذا الجيب المتمرّد ، وقد طافت به الآلام ؛ لأنّه لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى هذا العصيان والتمرّد .

هل إنّ عليّاً استأثر بأموال الدولة كما استأثر عثمان بن عفّان ؟!

هل إنّه وظّف في جهاز الدولة أرحامه وأقرباءه ؟!

هل إنّه خالف حكماً من أحكام الله تعالى حتّى يبرّر خروجهم عليه ؟!

وعلى أي حال ، فقد تحرّكت قوّات الإمام تجدّ في السير حتّى انتهت إلى (الزاوية) ، وهي موضع قريب من البصرة ، فصلّى الإمام الممتحن أربع ركعات ، وجعل يعفّر خدّه الشريف على تربتها وهو يبكي على ما ألمّ به من هذه الأحداث ، وقد رفع يديه بالدعاء إلى الله تعالى يشكو إليه ما ألمّ به من هذه الكوارث قائلاً :

« اللّٰهُمَّ رَبَّ السَّماواتِ وَما أَظَلَّتْ ، وَالْأَرَضينَ وَما أَقَلَّتْ ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظيمِ . هٰذِهِ الْبَصْرَةُ أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِها ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّها . اللّٰهُمَّ أَنْزِلْنا فيها خَيْرَ مُنْزَلٍ .

اللّٰهُمَّ هٰؤُلاءِ الْقَوْمِ قَدْ خَلَعُوا طاعَتي ، وَبَغَوْا عَلَيَّ ، وَنَكَثُوا بَيْعَتي ، اللّٰهُمَّ احْقِنْ دِماءَ الْمُسْلِمينَ »[1] .

لقد انطوت نفسه على حزن عميق ، وأسىً مرير من هذا التمرّد الذي يترك بصماته على تصديع شمل المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، وإشاعة الفتن والأحقاد بينهم .

الدعوة إلى السلم

ودعا الإمام عليه السلام إلى السلم ، وعدم إراقة الدماء ، فجعل يطوف بين أصحابه وفي نفسه بقيّة أمل في الصلح قائلاً :

« أَيُّكُمْ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ هذا الْمُصْحَفَ وما فيهِ ، فَإِنْ قُطِعَتْ يَدُهُ أَخَذَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرىٰ ، وَإِنْ قُطِعَتْ أَخَذَهُ بِأَسْنانِهِ ، وَهُوَ مَقْتُولٌ » .

---

(١) مروج الذهب : ٢/٢٥٤ .

فانبرى إليه شهم نبيل قائلاً:

«أنا له يا أمير المؤمنين».

فأشاح الإمام بوجهه عنه حرصاً عليه، ونادى في أصحابه مرّة أخرى، فلم يستجب له أحد سوى هذا الفتى، فدفع له المصحف، وقال له:

«إعْرِضْ عَلَيْهِمْ هٰذا، وَقُلْ هُوَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، وَاللهُ في دِمائِنا وَدِمائِكُمْ».

وانطلق الفتى بحماس لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب، فدعاهم إلى كتاب الله، فلم يستجيبوا له، وقطعوا يمناه، فأخذ المصحف بيساره وهو يدعوهم إلى كتاب الله تعالى وحقن الدماء، فانثالوا عليه ورشقوه بنبالهم فوقع إلى الأرض جثّة هامدة، وراحت أُمّه ترثيه:

يا ربِّ إنَّ مُسلِماً أتاهُمْ ... يَتلو كِتابَ اللهِ لا يَخشاهُمْ

فَخضَّبُوا مِنْ دَمِهِ لَحاهُمْ ... وأُمّهُ قائِمَةٌ تَراهُمْ[1]

ولم يجد الإمام الممتحن وسيلة للصلح، فقال لأصحابه بعد شهادة الفتى:

«الْآنَ حَلَّ قِتالُهُم، وَطابَ لَكُمُ الضِّرابُ...».

وأقام الإمام عليه السلام جيشه للحرب وأخذ يجول بين الصفوف، فنظرت إليه عائشة وقالت:

«انظروا إليه كأنّ فعله فعل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر، أما والله لا ينتظر بكم إلّا زوال الشمس»[2].

ووضع الإمام منهجاً لقوّاته فقال لهم:

---

(١) مروج الذهب: ٢/٣٤٦.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ١/٤٤٨، وفيه تفصيل عن الحادثة، وقد ذكرنا صوراً موجزة منه.

«أَيُّها النَاسُ، إذا هَزَمْتُمُوهُمْ فَلَا تُجْهِزُوا عَلىٰ جَرِيحٍ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيراً، وَلَا تَتَّبِعُوا مُوَلِّياً، وَلَا تَطْلُبُوا مُدْبِراً، وَلَا تَكْشِفُوا عَوْرَةً، وَلَا تُمَثِّلُوا بِقَتِيلٍ، وَلَا تَهْتِكُوا سِتْراً، وَلَا تَقْرَبُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ إِلَّا ما تَجِدُوهُ فِي مُعَسْكَرِهِمْ مِنْ سِلاحٍ أَوْ كِراعٍ أَوْ عَبْدٍ أَوَ أَمَةٍ، وَما سِوىٰ ذلك فَهُوَ مِيراثٌ لِوَرَثَتِهِمْ عَلىٰ كِتابِ اللهِ تَعالىٰ...»[1].

لقد أعطى الإمام عليه السلام منهجاً إسلامياً لقتال المسلمين فيما بينهم لم يكن معروفاً من قبل، وعليه اعتمد فقهاء المسلمين في بيان الأحكام الشرعيّة في قتال المسلمين بعضهم لبعض، وقد تمثّلت فيه أصالة التشريع ورأفة الإسلام في عمليّات الحروب بين المسلمين، وتولّى الإمام بنفسه قيادة جيشه، وقد رفع العلم بيسراه، وشهر بيمينه ذا الفقار الذي حصد به رؤوس الملحدين والمشركين في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، واليوم يحارب به المارقين من الدين، والمنحرفين عن الإسلام، وقد احتفّ به أعلام المهاجرين والأنصار في طليعتهم الصحابي العظيم عمّار بن ياسر، وكان العدوّ أمام بواترهم كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف.

وقد صرع طلحة، وقبله الزبير، اللذين كانا العمود الفقري لذلك الجيش الضالّ.

قيادة عائشة للجيش

وتولّت عائشة بنفسها قيادة الجيش، وقد حملت صرّة من المال وهي تلوح بها وتقول:

«من أتاني برأس الأصلع - يعني عليّاً، فله هذه الصرّة».

وقد استطابت بعض القبائل الموت في سبيل عائشة، فقدّموا لها المزيد من

---

(١) نهج البلاغة: ٣٧٣.

الضحايا، وهم:

١ ـ الأزد

تفانت الأزد في ولائها لعائشة، فكانوا يأخذون بعر جملها يشمّونه ويقولون:

«بعر جمل أُمّنا ريحه ريح المسك»، وكان منهم شيخ يحثّهم على الدفاع عن عائشة، ويستنجد بهم لنصرتها قائلاً:

يَـا مَـعْشَرَ الأَزْدِ عَـلَيكُمْ أُمَّكُـمْ ... فَـإِنَّها صـلاتُكُمْ وَصَـوْمُكُمْ

والحُرْمَةُ العُظْمى الَّتي تَعُمُّكُمْ ... فـأَحْضِروها جِـدَّكُـمْ وَحَـزْمَكُمْ

لَا يَـغْلِبَنْ سُـمُّ العَدُوِّ[1] سُـمَّكُمْ ... إنَّ العَـدُوَّ إِنْ عَـلَاكُـمْ زَمَّكُـمْ

وَخَـصَّكُمْ بِـجَوْرِهِ وَعَـمَّكُمْ ... لا تَفضَحوا اليَومَ فِداكُم قَوْمَكُمْ[2]

وسمعت عائشة هذا الشعر فأنست به وراحت تقول لهم:

«من أنتم؟».

«الأزد».

وأخذت تلهب في نفوسهم روح العزم والحماس قائلةً:

«إنّما يصبر الأحرار».

حقّاً لقد كانت عائشة قائدة عسكريّة محنّكة عارفة بأساليب الحروب.

٢ ـ بنو ضبّة

أمّا بنو ضبّة فقد وصفهم المؤرّخون بأنّهم من أراذل العرب، وأنّهم غلاظ القلوب، قد سادت فيهم روح الجاهليّة ومساوئها، وقد أحاطوا بجمل عائشة وهم يرتجزون:

---

(١) يريد بالعدو: الإمام أمير المؤمنين صدِّيق المؤمنين وعدوّ المنافقين.

(٢) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد: ٢/٨١.

يا أُمَّنا يـا زَوجَـةَ النَّـبيِّ يا زَوجَةَ المُبارَكِ المَهدِيِّ
نَـحنُ بَـنو ضَـبَّة لا نَـفِرُّ حَتّىٰ نَرى جَماجِماً تَـخِرُّ
يَخِرُّ مِنْها العَلَقُ المُحْمَرُّ

ووقفوا بحماس بالغ مدافعين وقد قاتلوا أعنف القتال وأشدّه ، وشاعرهم يرتجز :

نَحْنُ بَنو ضَبَّة أَصْحابُ الجَمَل نُـنازِلُ القَـرنَ إذا القَـرْنُ نَزَل
والقَتْلُ أَشْهىٰ عِنْدَنا مِنَ العَسَـل نَبْغي ابْنَ عَفّانَ بِأَطْرافِ الأَسَـل
رُدّوا عَلَيْنا شَيخَنا ثُمَّ بَجَلْ

وقتل حول خطام جملها المسمّى (عسكر) أربعون رجلاً منهم ، وكانت عائشة تثني عليهم وتبعث في نفوسهم الثورة والدفاع عنها ، ولمّا قتل معظمهم راحت تقول بأسى : « ما زال جملي معتدلاً حتّى فقدت أصوات بني ضبّة » .

٣ ـ بنو ناجية

من القبائل التي بالغت في الدفاع عن عائشة بنو ناجية ، وقد استبسلوا في الدفاع عنها ، فقذفوا بنفوسهم في اتون الحرب دفاعاً عنها ، وكانت تقذف في نفوسهم العزم والحماس على الحرب قائلة :

« صبراً يا بني ناجية ، فإنّي أعرف فيكم شمائل قريش » .

وقد دفعت بهؤلاء الفقراء إلى الموت استجابة لعواطفها المترعة بالحقد والبغض للإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

عقر الجمل

واستمرّ القتال بين الفريقين كأشدّه وأعنفه يريد أصحاب عائشة أن يحموا أمّهم

ويموتوا دونها، ويريد أصحاب الإمام أنْ يحموا وصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه.

ورأى الإمام أنّه لا يمكن أن تحسم المعركة مع وجود الجمل الذي هو كمجل بني إسرائيل، فقال لعمّار والأشتر:

«**إِذْهَبا فاعْقِرا هٰذَا الْجَمَلَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ لَا يَحْمَدُ ضِرامُها ما دامَ حَيّاً، فإِنَّهُمْ قَدِ اتَّخَذُوهُ قِبْلَةً لَهُمْ**».

وانطلق عمّار والأشتر ومعهما فتية من مراد، فوثب إليه فتى منهم فضربه على عرقوبه فهوى إلى الأرض، وله ضجيج منكر لم يسمع مثله، وانهزم جنود عائشة، فقد تحطّم عجلهم الذي قدّموا له المزيد من القرابين، وأمر الإمام بحرقه وذرّ رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقيّة يفتتن بها النّاس وقال:

«لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل».

ومدّ بصره إلى الرماد الذي تناثر في الهواء فتلا قوله تعالى: ﴿**وَانظُرْ إِلَىٰ إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً**﴾[1].

الصفح عن عائشة

وقابل الإمام الممتحن عائشة بالإحسان والصفح، فبعث إليها أخاها من أبيها ـ محمّد ـ يسألها عن حالها، فانطلق محمّد إليها فأدخل يده في هودجها فصاحت به:

«من أنت؟».

«أبغض أهلك إليك».

وعرفته فقالت له بعنف:

---

(١) طه ٢٠: ٩٧.

« ابن الخثعميّة ؟ ».

« أخوك البرّ ».

« عقوق ».

وأزاحت بوجهها عنه والتفت إليها:

« هل أصابك مكروه ؟ ».

« سهم لم يضرّني ».

فانتزعه منها وحملها على بعير فيه هودج، ومضى في الهزيع الأخير من الليل إلى دار عبدالله بن خلف الخزاعي، وفيه صفيّة بنت الحارث، فأقامت فيه أيّاماً.

العفو العامّ

وأصدر الإمام عفواً عامّاً عن الجناة من جنود عائشة وأتباعها، وطلبت عائشة أن يعفو عن ابن أُختها عبدالله بن الزبير، وهو من ألدّ أعدائه، فعفا عنه، كما توسّط الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام في الوزغ مروان بن الحكم فعفا عنه، وأمر الإمام شخصاً فنادى ألا يُجهز على جريح، ولا يتبع مولٍّ، ولا يطعن في وجه مدبر. ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

ثمّ آمن الأسود والأحمر، على حدّ تعبير اليعقوبي[1]، ولم ينكّل بأي أحد من خصومه، كما فعل رسول الله بأهالي مكّة حين ما احتلّها.

تسريح عائشة

وأوفد الإمام إلى عائشة عبدالله بن عبّاس لتخرج من البصرة إلى يثرب فتقرّ في بيتها كما أمرها الله تعالى، فانطلق إليها فأبت أن تأذن له، فدخل بغير إذنها،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/١٥٩.

وهوى إلى متاعها فأخرج منه وسادة فجلس عليها، فأنكرت عليه ذلك وقالت له:

« تالله يابن عبّاس.. ما رأيت مثلك تدخل بيتنا، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا ».

فأجابها ابن عبّاس بمنطقه الفيّاض:

« والله! ما هو بيتك، وما بيتك إلّا الذي أمرك الله تعالى أن تقرّي فيه فلم تفعلي، إنّ أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعي إلى بيتك الذي خرجت منه ».

فأظهرت كوامن غيظها وبغضها للإمام قائلة:

« رحم الله أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطّاب ».

« هذا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ».

وراحت تقول:

« أبيت.. أبيت ».

وردّ عليها ابن عبّاس قائلاً:

« ماكان آباؤك إلّا فواق ناقة بكيئة[1]، ثمّ صرت ما تحلّين ولا تأمرين ولا تنهين ».

والتاعت من كلامه فقالت:

« نعم، ارجع فإنّ أبغض البلد إليّ بلد أنتم فيه ».

وثار ابن عبّاس وردّ عليها قائلاً:

« أما والله ما كان ذلك جزاؤنا منك؛ إذ جعلناك للمؤمنين أمّاً، وجعلنا أباك لهم صدّيقاً ».

---

(١) الفواق: الناقة التي تحلب ثمّ تترك ليرضعها الفصيل حتى تدرّ فتحلب. البكيئة: الناقة التي قلّ لبنها.

فأجابته بسخف:

«أتمنُّ عليَّ برسول الله».

نعم، إنّه يمنّ عليها برسول الله، فمن هي ومن أبوها وصاحبه لولا رسول الله ﷺ، فقد كانا كبقيّة قريش يعبدون الأوثان والأصنام، وانبرى ابن عبّاس فردّ عليها قائلاً:

«نمنّ عليك بمن لو كان -يعني رسول الله ﷺ- منك بمنزلته منّا لمننت به علينا».

ثمّ تركها وانصرف، وأمر الإمام بتسريحها إلى يثرب، فسرّحت تسريحاً جميلاً.

ورحلت عائشة من البصرة وقد أشاعت في بيوتها الثكل والحزن والحداد، فقد كان عدد الضحايا بسببها عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب الإمام، ونصف من أصحابها[1].

إنّها مسؤولة أمام الله تعالى عمّا اقترفته من إراقة دماء المسلمين، وإشاعة الفتن والبغضاء فيما بينهم، ولا ينفعها زواجها من النبيّ ﷺ، فإنّ الإسلام لا يعتبر ذلك، فامرأة نوح ولوط في النار؛ لأنّهما خانتا الله تعالى، وخانتا نبيّه، وامرأة فرعون الطاغية في أعلى عليّين لما آمنت بالله تعالى.

هذا هو منطق الإسلام، قال تعالى:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[2]. وقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٢٢٤، وقيل: إنّ عدد القتلى أكثر من ذلك.

(٢) النجم ٥٣: ٣٩ و ٤٠.

(٣) الزلزلة ٩٩: ٧ و ٨.

وعلى أي حال ، فساعد الله تعالى الإمام على هذه المحن والفتن التي ابتلي بها ، والتي أثارتها عليه الأحقاد والضغائن والحسد الذي نخر قلوبهم على ما منحه الله تعالى من الفضائل والمواهب .

وعلى أي حال ، فإنّ الإمام قد امتحن امتحاناً عسيراً ، وابتلي ابتلاءً شديداً من القرشيّين الذين ناجزوه ، ووضعوا السدود والحواجز أمام مخطّطاته الهادفة إلى نشر الإسلام على حقيقته النازلة من ربّ العالمين التي ينعم في ظلالها المحرومون والفقراء ولا يبقى في المجتمع فقير يتبيّغ به فقره ، ويشكو الجوع والحرمان .

إنّ حادثة الجمل كانت ضربة قاسية لحكومة الإمام عليه السلام ، فقد جرّت له المتاعب ، وفتحت عليه أبواب الشغب والتمرّد ، والتي كان منها تمرّد الذئب الجاهلي معاوية بن أبي سفيان ، وانضمّ إليه ذئاب الجاهلية أمثال ابن العاص ، وابن شعبة ، وسمرة بن جندب ، وسائر بني أُميّة وآل أبي معيط ، فجرّعوا الإمام نغب التهمام ، وحوّلوا خلافته إلى ساحات من الألم والحزن والمعاناة .

وقعة صفّين

إنّ حادثة صفّين تجسّم فيها الصراع بين الحقّ والباطل ، وبين العدل والظلم ، وبين الخلافة الدينيّة وبين الإمرة الدنيويّة التي تهدف إلى الإثرة والاستغلال ، والمتاجرة بمصالح الشعوب وإرغامها على الذلّ والعبوديّة .

إنّ حادثة صفّين قد نجم عنها أنّ الشعب المسلم لم يقرّر حقّ مصيره في نهاية واقعة صفّين ، ورضخ للذلّ والعبوديّة ، وجرّ للأجيال من بعده المصاعب ، وألقاهم في شرّ عظيم ، وقد ألمح إلى ذلك مالك الجزائري في إيضاحه لمقرّرات مؤتمر باندوج . قال :

« ولقد عرف التاريخ الإسلامي لخطّة كهذه في تقرير حقّ المصير في معركة صفّين ، تلك الحادثة المؤسفة المؤثّرة التي نتج عنها التذبذب في الاختيار ،

الاختيار الحتم بين عليّ ومعاوية، بين المدينة ودمشق، بين الحكم الديمقراطي الخليفي والحكم الأموي، ولقد اختار المجتمع الإسلامي في هذه النقطة الفاصلة في تاريخه الطريق الذي قاده أخيراً إلى القابلية للاستعمار، وإلى الاستعمار»[1].

إنّ المجتمع الإسلامي لم يقرّر حقّ مصيره لا في واقعة صفّين فحسب، وإنّما في مؤتمر السقيفة والشورى العمريّة، فقد سادت الأهواء، وسيطرت العواطف، وابتعد القوم عن مصالح الأمّة».

وعلى أي حال، فلنعد إلى عرض خاطف وسريع إلى واقعة صفّين التي انحسم فيها الحقّ وظهرت دولة الباطل.

تمرّد معاوية

وأيقن معاوية أنّ الإمام من ألدّ أعدائه وخصومه، فقد أصدر أوامره في اللحظة الأولى من خلافته بعزله وإقصائه عن ولاية الشام.

أمّا الذي حفّزه إلى إعلان العصيان فيرجع إلى عدّة عوامل، منها:

أوّلاً: إنّ له قوّة يستطيع بها على مناجزة الإمام، فإنّه لم يعمل في الشام عمل والٍ، ولكنّه عمل عمل صاحب الدولة التي أسّسها له ولا بنائه، فجمع الأقطاب واشترى الضمائر وأحاط بالقوّة والثروة، واستعدّ للبقاء الطويل[2].

وقد أضفى عليه الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب لقب كسرى العرب، وأمدّه بجميع مقوّمات البقاء.

---

(١) فكرة الأفريقيّة الآسيويّة في ضوء مؤتمر باندوج: ١١١.

(٢) عبقرية الإمام عليّ:

ثانياً: ممّا دفعه إلى التمرّد خروج عائشة وطلحة والزبير، فقد فتحوا له الطريق، ومهّدوا السبيل، ورفعوا شعار المطالبة بدم عثمان، وهم لا يمتّون إليه بنسب، فهو أوْلى وأحقّ منهم بدمه، وفعلاً فقد رفع شعار المطالبة بدم عثمان.

ثالثاً: إنّ ممّا شجّعه على مناجزة الإمام مع علمه بسموّ مقامه، وعظيم منزلته عند رسول الله ﷺ، هو ابتزاز الشيخين حقّ الإمام وإقصائه عن الحكم، وقد جاء ذلك صريحاً في رسالته التي بعثها معاوية لمحمّد بن أبي بكر والتي منها:

«كان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه ـ يعني علياً عليه السلام ـ وخالفاه على أمره، وعلى ذلك اتّفقا واتّسقا، ثمّ دعواه إلى بيعتهما، فأبطأ عليهما، فهمّا به الهموم، وأرادا به العظيم، ثمّ إنّه بايع لهما وسلّم لهما، وأقاما لا يشاركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرّهما حتّى قبضهما الله».

وأضاف:

«فإن يك ما نحن فيه فأبوك استبدّ به، ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلّمنا إليه، ولكن رأينا أباك على ذلك من قبلنا وأخذنا بمثله»[1].

وهو تعليل وثيق، فلولا إقدام الشيخين على قهر الإمام، وغصب حقّه لما استطاع ابن أبي سفيان أن ينازع الإمام ويعلن عليه الحرب.

زحف معاوية لصفّين

وزحف معاوية بقوّاته المسلّحة إلى صفّين، واتّخذها مقرّاً لقوّاته، وقد مكثت فيها تصلح أمرها، وتنظّم قواها للإستعداد أو للحرب، وقد احتلّت حوض الفرات خوفاً من أن ترتوي منه جيوش الإمام إذا داهمتهم لتموت عطشاً.

---

(١) المسعودي على هامش ابن الأثير: ٧٨/١ ـ ٧٩.

مسير الإمام عليه السلام إلى صفّين

خرج الإمام عليه السلام من الكوفة تحفّ به صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد زحفت معه قوّاته كأنّها السيل، وهي ما بين راكب وراجل، وهي على بيّنة من أمرها، إنّها تحارب أعداء الله ورسوله وخصوم الإسلام.

ولزمت جيوش الإمام الفرات في زحفها حتّى انتهت إلى الأنبار، فاستقبلها أهلها، ومعهم دوابّهم هدية منهم إلى الإمام، وأنكر الإمام ذلك فقال لهم:

«ما هذِهِ الدَّوابُّ الَّتي مَعَكُمْ؟ وَما أَرَدْتُم بِهذا الَّذي صَنَعْتُم؟».

فأجابوه خاضعين:

«يا أمير المؤمنين، أمّا هذا الذي صنعنا فهو خلق منّا نعظّم به الأمراء، وأمّا هذه الدواب فهدية لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً، وهيّأنا لدوابكم علفاً كثيراً».

فوبّخهم رائد العدالة في الأرض قائلاً:

«أَمّا هذا الَّذي زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْكُمْ خُلْقٌ تُعَظِّمونَ بِهِ الْأُمَراءَ، وَاللهِ! ما يَنْتَفِعُ بِهذا أُمَراؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشْقُونَ بِهِ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ وَأَبْدانِكُمْ، فَلا تَعودوا لَهُ، وَأَمّا طَعامُكُمُ الَّذي صَنَعْتُمْ لَنا فَإِنّا نَكْرَهُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْ أَمْوالِكُمْ شَيْئاً إِلّا بِثَمَن»

هذا هو العدل في الإسلام الذي سار عليه عليه السلام، وطبّقه بأروع معانيه وصوره على المسلمين، فليس في سياسة الإمام أي مظهر من مظاهر عظمة الملوك ورؤساء الجمهوريّات الذين تغريهم السلطة.

واندفع الأنباريّون إلى الاذعان لقول الإمام، فقالوا:

«يا أمير المؤمنين، تقومه ـ أي الطعام ـ ثمّ نقبل ثمنه»[1].

---

(١) وقعة صفّين: ١٤٣ ـ ١٤٤.

في رحاب صفّين

وأخذ جيش الإمام يجدّ في السير لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى صفّين ، وكان الإمام يتحرّق ألماً وحزناً على ما صار إليه أمر المسلمين ، فقد عبث هؤلاء اللصوص والمنافقون الذين لا يرجون لله تعالى وقاراً في مصيرهم وتطوير حياتهم .

وأقبل جيش الإمام على حوض الفرات ليستقوا منه ، فوجدوا عليه الحرس الكثير وهم يمنعونهم من الوصول إليه أشدّ الممانعة ، وبعث الإمام صعصعة إلى معاوية يطلب منه أن يخلي بين الجيش والماء ، واستشار معاوية أصحابه فأشار عليه أكثرهم أن يمنعونهم عن الماء ، فاستجاب لهم معاوية فلم يسمح لهم بالماء ، ورجع صعصعة فأخبر الإمام بذلك ، فحمل جيش الإمام عليهم فهزموهم ، وألحقوا بهم خسائر فادحة ، واستولوا على الفرات ، ولم يقابلهم الإمام بالمثل ، وإنّما قابلهم بالخُلق الكريم ، فقد سمح لهم أن يردوا منه .

الدعوة إلى السلم

وأوفد الإمام إلى معاوية كوكبة من أصحابه يدعونه إلى السلم وعدم إراقة الدماء ، فلم يستجب لهم ، وأصرّ على الغيّ والعدوان ، وقد ذكرنا صوراً مفصّلة عن دعوة الإمام إلى السلم ، وعدم استجابة معاوية له في موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

إعلان الحرب

ولمّا أخفقت جميع الوسائل التي بعثها الإمام إلى معاوية لحقن الدماء تهيّأ الإمام إلى الحرب ، وقد أوصى جيشه بالمثل الكريمة لتطبيقها في ساحة الحرب ، وعقد

الألوية ، وأمر الأمراء وجعلت كتائب من جيش الإمام تخرج إلى فرق أهل الشام فيقتتل الفريقان نهاراً كاملاً أو بعضاً منه ، ولم يرغب الإمام في الحرب العامّة بين الفريقين رجاء أن يثب معاوية إلى الرشاد.

وجعل مالك الأشتر القائد العامّ للقوّات المسلّحة في جيش الإمام ينظر إلى رايات أهل الشام فإذا هي رايات المشركين التي خرجت لحرب رسول الله ﷺ ، وخاطب جيشه قائلاً:

« أكثر ما معكم رايات كانت مع رسول الله ﷺ ، ومع معاوية رايات كانت مع المشركين على عهد رسول الله ﷺ ، فما يشكّ في قتال هؤلاء إلّا ميّت القلب ».

خطاب عمّار

ألقى الصحابي العظيم عمّار بن ياسر خطاباً عرّف فيه الجماهير معاوية ، وأنّه باغٍ على الإسلام ، ومجرّد من الإيمان قائلاً:

« يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين ، فلمّا أراد الله تعالى أن يظهر دينه ، وينصر رسوله أتى النبيّ فأسلم ، وهو والله فيما يرى راهب غير راغب ، وقبض الله تعالى رسوله ، وإنّا والله تعالى نعرفه بعداوة المسلم ، ومودّة المجرم ألا وأنّه معاوية ، فالعنوه لعنه الله تعالى ، فإنّه ممّن يطفئ نور الله تعالى ، ويظاهر أعداء الله تعالى ».

حكى خطاب عمّار واقع معاوية ، فهو قبل أن يسلم كان معادياً لله تعالى ولرسوله ، وباغياً على المسلمين ، وإنّما أظهر الإسلام بلسانه خوفاً من أن تحصد سيوف المسلمين رأسه ، وهو على شركه لم يؤمن بالإسلام طرفة عين ، فلمّا وجد أعواناً نهض بهم لمحاربة الإسلام ، ومناهضة وصيّ رسول الله وباب مدينة علمه.

الحرب العامّة

واستمرّت المناوشات بين الفريقين أمداً غير يسير من دون أن تقع بينهما حرب عامّة، وقد سئم كلّ منهما هذه المناوشات التي لا تحسم الحرب، وتزيد الفتنة امتداداً والشرّ انتشاراً، فعبّأ الإمام أصحابه، وتهيّأ للحرب العامّة، وفعل معاوية مثل ذلك، والتقى كلّ منهما بالآخر.

واشتد أوار الحرب حتّى جفل الفريقان، وخيّم عليهما الموت لكثرة من قُتل منهم.

وبعد معارك رهيبة بين الفريقين بان الانكسار في جيش معاوية، وكاد أصحابه يبلغون فسطاطه وهمّ بالفرار إلّا أنّه تذكّر قول ابن الاطنابة:

أَبَتْ لِي هِمَّتِي وَأَبَىٰ بَلائي ... وإِقْدامي عَلَى البطَلِ المُشيحِ
وإِعْطائي عَلَى الْمَكْروهِ مالي ... وأَخْذي الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبيحِ
وقَولي كُلَّما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مَكانَكِ تُحمَدِي أَو تَسْتَريحي

فردّه هذا الشعر إلى الصبر والثبات، كما كان يتحدّث بذلك أيّام العافية.

مصرع عمّار

أمّا الصحابي العظيم عمّار فهو في طليعة أصحاب رسول الله ﷺ إيماناً وجهاداً وإخلاصاً وتفانياً في خدمة الإسلام، ولمّا رأى الرؤوس تتساقط والأرض قد صبغت بالدماء أخذ يناجي نفسه قائلاً:

« صدق رسول الله ﷺ، هؤلاء القاسطون، إنّه اليوم الذي وعدني فيه رسول الله ﷺ، إنّي قد أربيت على التسعين عاماً فماذا أنتظر؟

رحماك ربّي قد اشتقت إلى إخواني الذين سبقوني بالإيمان إليك.. سأمشي إلى

لقاء ربّي مجاهداً أعداءه بين يدي وليّه ووصيّ رسوله ، وخليفته من بعده ، فإنّي أراه اليوم الذي وعدني به رسول الله ﷺ ».

وأطال النظر في رايات معاوية فراح يقول :

« إنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين ، وأنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب ».

وتمثّلت أمامه صفحات من تاريخه الجهادي ، وتذكّر أبويه ياسر وسميّة وهما يعذّبان أعنف العذاب وأشقّه على أيدي جبابرة قريش حتّى استشهدا ، وتذكّر ما عاناه من العذاب على يد عثمان بن عفّان شيخ الأمويّين .

كلّ ذلك في سبيل الله تعالى ، وقد أودعت هذه الذكريات في نفسه شوقاً عارماً إلى الشهادة ، فانفجر باكياً وهو يناجي ربّه قائلاً :

« اللّهمّ إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك أن أضع ظبّة سيفي في صدري ثمّ أنحني عليها حتّى تخرج من ظهري لفعلت ، ولو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف نفسي في هذا البحر لفعلت ، ولو أعلم أنّ رضاك أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردّى وأسقط لفعلت .

وإنّي لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء القاسطين ، ولو أعلم من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلت ».

يا له من إيمان واطمئنان وإخلاص لله ورسوله ، لقد كان عمّار مثالاً رائعاً للإيمان والفداء والتضحية في سبيل الله تعالى .

وانعطف عمّار صوب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ودموعه تنبلور على كريمته الشريفة ، فقام إليه الإمام إجلالاً وتعظيماً فعانقه وأجلسه إلى جانبه ، والتفت عمّار إليه قائلاً :

« يا أخا رسول الله ، أتأذن لي في القتال ؟ » .

وذعر الإمام وراح يقول له بصوت راعش حزين النبرات :

« **مَهْلاً يَرْحَمُكَ اللهُ** » .

وانصرف عمّار ، فلم يلبث إلّا قليلاً حتّى عاودته الذكريات السابقة ، فرجع إلى الإمام راجياً منه أن يأذن له في القتال قائلاً :

« أتأذن لي يا أمير المؤمنين في القتال ؟ » .

« **مَهْلاً يَرْحَمُكَ اللهُ** » .

ومضى عمّار فلم يمكث إلّا قليلاً حتّى عاوده الشوق إلى ملاقاة الله تعالى ، ومفارقة هذه الحياة فكرّ راجعاً إلى الإمام قائلاً :

« أتأذن لي بالقتال ، فإنّي أراه اليوم الذي وصفه رسول الله ﷺ ، وقد اشتقت إلى لقاء ربّي ، وإلى إخواني الذين سبقوني » .

لقد سئم عمّار من الحياة ، واشتاق إلى نبيّ الله ، وإلى إخوانه الذين سبقوه بالإيمان ، ولم يجد الإمام المظلوم بدّاً من إجابته ، فقام إليه وعانقه وقد ذابت نفسه أسى وحسرات ، وراح يقول له :

« **يا أَبا اليَقْظانِ ، جَزاكَ اللهف عَنّي وَعَنْ نَبِيِّكَ خَيْراً ، فَنِعْمَ الأَخُ كُنْتَ ، وَنِعْمَ الصّاحِبُ** » .

وأجهش الإمام بالبكاء ، وبكى عمّار وقال :

« والله يا أمير المؤمنين ما نبعتك إلّا ببصيرة ، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين :

يا عَمّارُ ، سَتَكونُ بَعْدي فِتْنَةٌ ، فَإذا كانَ كَذلِكَ فَاتَّبِعْ عَلِيّاً وَحِزْبَهُ ، فَإِنَّهُ

مَعَ الْحَقِّ ، وَالْحَقُّ مَعَهُ ، وَسَيُقاتِلُ بَعْدِيَ النّاكِثِينَ وَالْقاسِطِينَ .

فجزاك الله يا أمير المؤمنين عن الإسلام أفضل الجزاء ، فقد أدّيته وبلّغت ونصحت » .

ثمّ انطلق إلى ساحة الحرب وهو جذلان مسرور بملاقاة الله تعالى ، ورفع صوته عالياً :

« الجنّة تحت ظلال العوالي ، اليوم ألقى الأحبّة محمّداً وحزبه » .

وتبعه المهاجرون والأنصار وجمهور غفير من الشباب المؤمن والمتحمّس لدينه ، فانعطف بهم إلى القائد العام هاشم المرقال الذي كان خبيراً بالشؤون العسكريّة ، فطلب منه عمّار أن يزحف به وبمن معه إلى منازلة معاوية ، فأجابه إلى ذلك ، وجعل عمّار يبعث في نفسه النشاط ويطلب منه الإسراع في التقدّم قائلاً له :

« احمل فداك أبي وأمّي » .

وحمل هاشم وجعل يزحف باللواء زحفاً ، فضاق عمّار وطلب منه الهجوم السريع ، وجعل يؤنّبه قائلاً :

« يا هاشم ، أعور وجبان ! » .

فأجابه هاشم :

« رحمك الله يا عمّار ، إنّك رجل تأخذك خفّة في الحرب ، وإنّي إنّما أزحف باللواء زحفاً أرجو أن أنال بذلك حاجتي وإنّي إن خففت لم آمن الهلكة »[1] .

وما زال عمّار يحرّض هاشماً على الهجوم فيرفق به تارة ، ويعنّفه أخرى حتّى حمل هاشم وهو يرتجز :

قَدْ أَكْثَرُوا لَوْمي وَما أَقَلَّا ... إِنِّي شَرِبْتُ النَّفْسَ لَنْ أَعْتَلا

---

(١) وقعة صفّين : ٢٤٠ .

أَعْـوَرُ يَـبْغِي نَـفْسَهُ مَـحَلّاً   لا بُـــدَّ أنْ يَـفُلَّ أو يُـفَلّا
قَدْ عـالَجَ الحَـياةَ حَـتّى مَـلّا   أَشُلُّهُم بِـذي الكُـعوبِ شَـلّا

وجال هاشم في ميدان القتال، وعمّار يقاتل معه، وقد نظر إلى راية ابن العاص فجعل يقول:

«والله إنّ هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات، وما هذه بأرشدهنّ».

وجعل عمّار يقاتل أعنف القتال على شيخوخته، وهو موفور النشاط، خفيف الحركة، وهو يرتجز:

نَحْنُ ضَرَبْناكُم عَـلىٰ تَـنْزيلِهِ   وَاليومَ نَضْرِبُكُم على تَأْويلِهِ
ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عَـنْ مَـقيلِهِ   وَيُذْهِلُ الخَليلَ عَـنْ خَـليلِهِ
أَوْ يَرجِعُ الحقُّ إلىٰ سَبيلِهِ

لقد قاتل عمّار قريشاً التي كفرت بالله تعالى، وناهضت رسوله حتّى دخلوا في الإسلام كارهين مرغمين، واليوم يقاتلهم على المبادئ التي جاء بها الإسلام، وبعد كفاح رهيب سقط بطل العقيدة ورمز الإيمان صريعاً قد قتله أبو العادية[1].

وقد ارتفعت روحه الطاهرة إلى الله تعالى كأسمى روح صعدت إلى السماء، وكان الإمام مضطرباً وقلقاً على مصير عمّار، فلمّا سمع بشهادته أحاطت به موجات من الأسى والحزن؛ لأنه فقد عضده وأخاه الذي يعرف قيمته، ومشى لمصرعه وهو يذرف أحرّ الدموع، وقد احتفّ به قادة الفرق وأمراء الجيش والبقيّة الصالحة من صحابة رسول الله ﷺ وهم يذرفون الدموع، قد علا منهم النحيب، ووقف الإمام

---

(١) كان هذا الخبيث إذا أراد الدخول على معاوية قال لحاجبه: «قاتل عمّار بالباب»، فيأذن له. أُسد الغابة: ٥/٢٦٧.

على جثمان الشهيد الخالد، فجعل يؤبّنه بحرارة وحزن قائلاً:

«إِنَّ امْرَأً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعْظُمْ عَلَيْهِ قَتْلُ عَمّارٍ ـ وَيَدْخُلْ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ مُصِيبَةٌ مُوجِعَةٌ ـ لِغَيْرُ رَشِيدٍ.

رَحِمَ اللهُ عَمّاراً يَوْمَ أَسْلَمَ.. وَرَحِمَ اللهُ عَمّاراً يَوْمَ قُتِلَ.. وَرَحِمَ اللهُ عَمّاراً يَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً.

لَقَدْ رَأَيْتُ عَمّاراً مَا يُذْكَرُ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْبَعَةٌ إِلَّا كانَ الرّابِعَ، وَلَا خَمْسَةٌ إِلَّا كَانَ الْخامِسَ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَشُكُّ فِي أَنَّ عَمّاراً قَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ وَلَا اثْنَيْنِ، فَهَنِيئاً لِعَمّارٍ الْجَنَّةُ».

وأهوى الإمام على عمّار فوضعه في حجره وقد ذابت نفسه عليه حزناً، وجعل يقبّله ويبكي وهو ينظم ذوب حشاه قائلاً:

أَلا أَيُّها الْمَوْتُ الذي لَيْسَ تارِكي ... أَرِحْني فَقَدْ أَفْنَيْتَ كُلَّ خَلِيلِ

أَراكَ بَصيراً بِالَّذينَ أُحِبُّهُم ... كَأَنَّكَ تَسْعى نَحْوَهُم بِدَلِيلِ

وثقل على الإمام مصرع عمّار، وأحاطت به موجات من الأسى والشجون، فهتف بربيعة وهمدان، فاستجابوا له وقال لهم:

«أَنْتُمْ دِرْعي وَرُمْحي».

فأجابه الثنا عشر ألفاً، فحمل بهم، فلم يبق صفّ لأهل الشام إلّا انتقض، ودمّروا جميع فصائل جيشه حتّى قربوا من فسطاط معاوية، والإمام يرتجز ويقول في رجزه:

أَضْـــــرِبُهُمْ وَلَا أَرىٰ مُـــعاوِيَةً الجـاحِظِ العَـيْنِ العَـظيمِ الحـاوِيَة

ووجّه الإمام عليه السلام خطابه إلى معاوية قائلاً:

وَيْحَكَ! عَلَامَ يَقْتَتِلُ النَّاسُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَيَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؟ أَبْرُزْ إِلَيَّ فَأَيُّنَا قَتَلَ صَاحِبَهُ فَالْأَمْرُ لَهُ...».

وانبرى ابن العاص إلى معاوية ساخراً منه قائلاً:

«أنصفك الرجل».

فردّ عليه معاوية:

«ما أنصفت، وإنّك لتعلم أنّه لم يبارزه أحد إلّا قتله».

فقال ابن العاص:

«وما يجمل بك إلّا مبارزته».

«طمعت فيها بعدي».

واستمرّ القتال بين الفريقين كأشدّه وأعنفه، وهم ماضون لا يريحون ولا يستريحون، وقد بانت الهزيمة في جيش معاوية، فقد تحطّمت جميع كتائبه وقواه حتّى همّ بالفرار والهزيمة.

مهزلة رفع المصاحف

لا أكاد أعرف مهزلة في التاريخ البشري مثل هذه المهزلة التي غلّفت بالكذب والخديعة والحيلة، وطوت ألوية العدل، وحقّقت النصر لقوى الباطل والضلال.

لقد بان الانتصار الساحق لجيش الإمام، وعجزت قوّات معاوية عن المقاومة، وقد دعا وزيره وشريكه فيما اقترفه من الأحداث الجسام، عمرو بن العاص وهو مذعور، فقال له بنبرات متقطّعة وهو يلهث قد جفّ ريقه من الخوف:

«إنّما هي الليلة حتّى يغدوا علينا بالفيصل كما ترى».

لقد أيقن معاوية بالهلاك، فلم تكن عنده قوّة تحميه، فقد انهار جيشه، وعجز عن المقاومة، فقال له ابن العاص:

«أرى رجالك لا يقومون برجاله، ولست مثله، فهو يقاتلك على أمر، وأنت تقاتله على أمر آخر.

إنّ أهل العراق يخافون منك إن انتصرت بهم، وأهل الشام لا يخافون من عليّ إن ظفر بهم».

وحكى كلام ابن العاص حقيقة الصراع بين الإمام وبين معاوية، فالإمام يقاتله من أجل الإسلام وإقامة العدل، ومعاوية يقاتله من أجل الملك والسلطان، كما أعرب عن بسالة جيش الإمام، فهو يدافع عن كرامته وحياته خوفاً من معاوية إن ظفر بهم، بخلاف أهل الشام فإنّهم لا يخافون من الإمام إن ظفر بهم، فإنّه يعاملهم كما عامل أهل الجمل باللطف والرحمة.

ثمّ أدلى ابن العاص برأي ماكر خبيث كان السبب في تدمير جيش الإمام وانقلابه على أعقابه قائلاً:

«إلق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنّه بالغ حجّتك في القوم، فإنّي لم أزل أوخّر هذا الأمر لحاجتك إليه».

رأى معاوية الصواب في رأي ابن العاص، فأمر برفع المصاحف، فرفعت زهاء خمسمائة مصحف على الرماح، وارتفعت أصوات أهل الشام، وهي تحمل نذر الموت إلى جيش الإمام قائلين بصوت واحد:

«هذا كتاب الله تعالى بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟

مَن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق ؟

مَن لجهاد الروم ؟

مَن للترك ؟

مَن للكفّار ؟ » .

ومن العجب أنّ معاوية وابن العاص يدعوان إمام المتّقين وسيّد الموحّدين إلى التحكيم بكتاب الله تعالى وهما لا يفهمان حرفاً منه ، فقد أشعلا نار الحرب وأزهقا الآلاف من أرواح المسلمين من أجل أطماعهما والوصول إلى كرسي الحكم .

الفتنة الكبرى

إنّ من أبشع المهازل في التاريخ البشري هي ما أحدثه رفع المصاحف من الانقلاب في جيش الإمام ، فقد خلع الطاعة ، وأعلن العصيان والتمرّد من دون تأمّل مع إشرافهم على الفتح والإطاحة بحكم الظلم والجور .

فقد أحاطت كتائب من جيش الإمام به وهم يعلنون الاستجابة الكاملة لدعوة معاوية هاتفين بلسان واحد :

« لقد أعطاك معاوية الحقّ ، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه » .

أي حقّ يعرفه معاوية وهو الذي سفك دماء المسلمين بغير حقّ ؟ وكان في طليعة الهاتفين والمجيبين لدعوة التحكيم المنافق الخبيث الأشعث بن قيس ، فقد كان سوسة تنخر في معسكر الإمام ، وكان حاقداً عليه ؛ لأنّ الإمام عزله عن رئاسة كندة وربيعة ، وجعلها لحسّان بن مخدوج .

وجاء الأشعث يلهث كالكلب صوب الإمام رافعاً صوته ليسمعه الجيش قائلاً :

« ما أرى النّاس إلّا قد رضوا وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت إلى معاوية فسألته ما يريد ونظرت إلى ما يسأل . . . ».

وامتنع الإمام من إجابته ، إلّا أنّ أولئك البهائم الذين لا يملكون أي وعي سوى التمرّد على الحقّ قد أحاطوا بالإمام وأجبروه على إجابته ، ومضى المنافق إلى معاوية فقال له :

« لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ ».

فأجابه معاوية مخادعاً :

« لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عزّ وجلّ في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضونه ، ونبعث رجلاً ، ثمّ نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ، ثمّ نتّبع ما اتّفقا عليه ».

وقفل الأشعث راجعاً إلى الإمام وهو رافع صوته :

« هذا هو الحقّ ».

وأكبر الظنّ أنّ معاوية قد منّاه وأرشاه ، وكان يعلم بانحرافه عن الإمام ، وراحت كتائب من جيش الإمام تلحّ عليه وترغمه على الإجابة فقال لهم :

« عِبادَ اللهِ ، إِنّي أَحَقُّ مَنْ أَجابَ إِلىٰ كِتابِ اللهِ تَعالىٰ ، وَلٰكِنَّ مُعاوِيَةَ وَعَمْرو بن العاصِ وابن أبي معيط وحبيب بن سلمى وابن أبى سرح ليسوا بِأَصْحابِ دين وَلا قُرْآن.

إِنّي أَعْرَفُ بِهِمْ مِنْكُمْ ، صَحِبْتُهُمْ أَطفالاً ، وَصَحِبْتُهُمْ رِجالاً ، فَكانوا شَرَّ أَطْفالٍ ، وَشَرَّ رِجالٍ ، إِنَّها كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بِها باطِلٌ ، إِنَّهُمْ يَعْرِفونَها وَلا يَعْمَلُونَ بِها ، وَما رَفَعوها لَكُم إِلّا خَديعَةً وَمَكيدَةً. أَعيروني سَواعِدَكُمْ وَجَماجِمَكُمْ

ساعَةً واحِدَةً، فَقَدْ بَلَغَ الْحَقُّ مَقْطَعَهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُقْطَعَ دابِرُ الَّذينَ ظَلَموا».

يا لمحنة الإمام ؟ الله أكبر ، أي بلاء ابتُلي به إمام المتّقين ، فقد تمرّد عليه فيلق من جيشه قوامه اثنا عشر ألفاً من الذين يُظهرون القداسة والدين وهم لا يفهمون شيئاً ، فقد أحاطوا بالإمام وهم ينذرونه بالحرب إن لم يخضع إلى ما دعاه إليه معاوية قائلين :

« أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفّان ، فوالله لنفعلّنها إن لم تجبهم » .

فردّ الإمام عليهم منطقهم الرخيص قائلاً:

« وَيْحَكُمْ أَنا أَوَّلُ مَنْ دَعا إِلىٰ كِتابِ اللهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَجابَ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ يَحِلُّ لِي وَلَا يَسَعُنِي فِي دِينِي أَنْ أُدْعىٰ إِلىٰ كِتابِ اللهِ فَلَا أَقْبَلَهُ ، إِنِّي إِنَّما أُقاتِلُهُمْ لِيَدِينُوا بِحُكْمِ الْقُرآنِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ عَصَوا اللهَ فِيما أَمَرَهُمْ وَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَنَبَذُوا كِتابَهُ ، وَلٰكِنِّي قَدْ أَعْلَمْتُكُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَادُوكُمْ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا الْعَمَلَ بِالْقُرآنِ يُرِيدُونَ... ».

ولم يُجدِ كلام الإمام الممتحن المظلوم مع هؤلاء البهائم شيئاً ، وأخذوا يصرّون عليه بإيقاف عمليات الحرب ، وانسحاب القائد العامّ الزعيم مالك الأشتر عن ميدان القتال ، وأخذوا يعتدون ويلحّون عليه إن لم يستجب لهم .

رأى الإمام أنّهم قد أجمعوا على حربه ومناجزته إن لم يستجب لهم ، فاضطرّوه إلى ذلك ، فبعث يزيد بن هانئ إلى الأشتر يأمره بالانسحاب عن ساحة الحرب ، فانتهى رسول الإمام إليه وبلّغه مقالته ، فقال له :

« قل لسيّدي : ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلنيّ عن موقفي ، إنّي

قد رجوت الله تعالى أن يفتح لي ، فلا تعجلني » .

وقفل الرسول راجعاً إلى الإمام فأخبره بمقالة الأشتر على الفتح ، وبـنتهي أمـر الظالمين ، وأراد معاوية أن يأخذ منه الأمان .

وأحاط الأخباث الذين جرّوا للأمّة الإسلاميّة الدمار والهلاك بالإمام قائلين له :

« والله ! ما نراك إلّا أمرته أن يقاتل » .

وأترعت نفس الإمام بالألم الممضّ فأجابهم :

« أَرَأَيْتُموني سارَرْتُ رَسولي ، أَلَيْسَ إِنَّما كَلَّمْتُهُ عَلىٰ رُؤوسِكُمْ عَلانِيَةً ، وَأَنْتُمْ تَسْمَعون ؟ » .

وراح هؤلاء الأدناس الذين هم صفحة عار وخزي على البشريّة مهدّدين للإمام قائلين له :

« فابعث إليه فليأتك ، وإلّا فوالله اعتزلناك » .

وأوشكوا أن يفتكوا بالإمام ، فقال عليه السلام لرسوله :

« ويحك يا يزيد ، قل له : فإنّ الفتنة قد وقعت » .

وانطلق يزيد مسرعاً نحو الأشتر فقال له :

« اقبل إلى أمير المؤمنين ، فإنّ الفتنة قد وقعت » .

وذعر الأشتر واستولت عليه موجات من الأسى والحزن ، وراح يقول لرسول الإمام :

« ألرفع هذه المصاحف وقعت الفتنة ؟ » .

« نعم » .

« أما والله لقد ظننت أنّها ـ أي المصاحف ـ حين رُفعت توقع اختلافاً وفرقة ، إنّها مشورة ابن العاهرة » يعني ابن العاص .

ثمّ التفت إلى رسول الإمام والألم يحزّ في نفسه قائلاً:

« ألا ترى إلى الفتح ؟ ألا ترى إلى ما يلقون ؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله بهم ؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه ؟ ».

وأخبره رسول الإمام بحراجة الموقف قائلاً:

« أتحبّ أنّك ظفرت هاهنا ، وأنّ أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه ، ويسلّم إلى عدوّه ».

وراح الأشتر يقول بأسى بالغ :

« سبحان الله ، لا والله لا أحبّ ذلك ».

وراح رسول الإمام يخبره بتمرّد الجيش ، وانقلابه على الإمام قائلاً:

« إنّهم قالوا : لترسلن إلى الأشتر فليأتينّك ، أو لنقتلنّك بأسيافنا كما قتلنا ابن عفّان ، أو لنسلّمنّك إلى عدوّك ».

وقفل الأشتر راجعاً إلى الإمام وهو لا يبصر طريقه من الحزن على ما مني به الإمام من المحن والخطوب .

لقد أشرف على الفتح ، ومني عدوّه بهزيمة ساحقة ، ولاحت أمارات الظفر .

وجعل يخاطب أولئك الأنذال الحقراء قائلاً لهم :

« يا أهل الذلّ والوهن ، أحين علوتم القوم فظنّوا أنّكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ قد والله تركوا ما أمر الله تعالى فيها وسنّة من أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم . امهلوني فواقاً ، فإنّي قد أحسست بالفتح ».

وأظهر هؤلاء الأجلاف العناد قائلين :

« لا .. لا .. ».

« امهلوني عدوة الفرس ، فإنّي قد طمعت بالنصر ».

«إذن ندخل في خطيئتك».

لقد استولى عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله تعالى، وراحوا مصرّين على العناد وعدم المبالاة بالخزي والعار، ومضى الأشتر يقيم لهم الأدلّة على فساد ما ذهبوا إليه قائلاً:

«حدّثوني عنكم، وقد قتل أماثلكم، وبقي أراذلكم متى كنتم محقّين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام، فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون، أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون، فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم، وكانوا خيراً منكم في النّار».

ولم يجد معهم المنطق ولا الدليل، وراحوا مصرّين على غيّهم وضلالهم قائلين:

«دع عنك يا أشتر، قاتلناهم في الله، وندع قتالهم في الله، وإنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا».

وأجابهم الأشتر:

«خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنّا نظنّ أنّ صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقكم إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحاً يا أشباه النيب الجلالة، ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون».

وراح هؤلاء الأنذال يشتمون مالكاً وهو يشتمهم، والتفت إلى الإمام:

«يا أمير المؤمنين، احمل الصفّ على الصفّ يصرع القوم».

وماذا يصنع الإمام وقد مني جيشه بانقلاب عليه، وقد ساورته الهموم، وطافت به موجات من الحزن العميق، فقد جرّ هؤلاء المتمرّدون إلى الأمّة المصبر المؤلم، فقد انتهت حكومة الإمام وطويت معالمها، وانتشرت حكومة الجور والاستبداد.

وأطرق الإمام حزيناً على ما صارت إليه الأمور وهتفوا:

« إنّ عليّاً رضى الحكومة ، ورضى بحكم القرآن » .

ولم يسع الأشتر إلّا السكوت والإذعان على كره ، وجعل أولئك الأنذال يهتفون :

« رضي أمير المؤمنين . . رضي أمير المؤمنين » .

ومن المؤكّد أنّ هذا الحماس والإصرار على إيقاف عمليّات الحرب بدلّ -بوضوح - على تآمر قوات الجيش على إسقاط حكومة الإمام ، وبالفعل فقد انهارت ، وتفلّلت جميع قواعدها ، وقد أدلى الإمام عليه السلام عن انهيار حكومته فقال :

« **لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً ، وَكُنْتُ ناهِياً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً . . .** »[1] .

لقد أرغم الإمام على إيقاف الحرب ، وسحب قوّاته عن جبهة القتال بعد ما أشرفت على النصر والفتح .

انتخاب الأشعري

ولم تقف محنة الإمام وبلاؤه في جيشه على هذا التمرّد ، وإنّما تعدّى إلى إصرارهم على انتخاب عدوّه الماكر الخبيث أبي موسى الأشعري ليكون ممثّلاً لهم ، وهذا ما يؤكّد إصرارهم على عزل الإمام وإسقاط حكومته .

ولم يرض هؤلاء الأوباش بانتخاب الزعيم مالك الأشتر ولا بابن عبّاس وغيرهما من ذوي البصيرة الذين يعرفون مكانة الإمام ، ويؤكّد الدكتور طه حسين إنّ إصرارهم على انتخاب الأشعري لم يأتِ مصادفة ، وإنّما كان عن مؤامرة وتدبير بين طلاب الدنيا من أصحاب عليّ ، وأصحاب معاوية جميعاً[2] .

---

(١) نهج البلاغة : ٢/٢١٢ .

(٢) عليّ وبنوه : ٢٩٠ .

لقد أحاطوا بالإمام وهم يهتفون:

«إنّا رضينا بأبي موسى الأشعري».

فزجرهم الإمام ونهاهم قائلاً:

«إِنَّكُمْ قَدْ عَصَيْتُموني في أَوَّلِ الأَمْرِ، فَلا تَعْصوني الآنَ، لا أَرىٰ أَنْ أُوَلّي أَبا موسى».

ولم يجد معهم نصح الإمام، وأصرّوا على انتخابه قائلين:

«لا نرضى إلّا به، فما كان يحذّرنا وقعنا فيه».

لقد حذّرهم أبو موسى من نصرة الإمام أيّام حرب الجمل، ووقف يخذّل النّاس عن نصرة الإمام، ثمّ هرب من الكوفة ولم يعد حتّى آمنه، وقد ذكّرهم الإمام بذلك قائلاً:

«إِنَّهُ لَيْسَ لي بِثِقَةٍ، قَدْ فارَقَني، وَخَذَّلَ النّاسَ عَنّي، ثُمَّ هَرَبَ مِنّي حَتّىٰ آمَنْتُهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ، وَلكِنْ هذا ابْنُ عَبّاس».

فردّوا عليه بجرأة وإصرار على التمرّد قائلين:

«ما نبالي أكنت أنت أم ابن عبّاس، لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية على حدّ سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر».

ولم يجد نصح الإمام معهم شيئاً، فقد أصبحت قيادة الجيش بأيديهم، والإمام بمعزل عن الحياة السياسيّة، ولم يستطع القيام بأي شيء.

وقد انتخب أهل الشام ابن العاص ممثّلاً لهم، وهو نفس معاوية.

ولم يبد العراقيّون أي معارضة لذلك.

وعلى أي حال، فقد تسابق القوم إلى تسجيل وثيقة التحكيم، فوقّعها الإمام

مكرهاً، ووقّعها معاوية عن رضى واستبشار، وقد ذكر الطبري وغيره نصّها.

رجوع الإمام إلى الكوفة

وقفل الإمام الممتحن راجعاً إلى الكوفة وهو مثقل بالهموم والأحزان، قد ألمّت به الخطوب والكوارث، فقد أيقن أنّ باطل معاوية قد استحكم، وتمّ ما أراده من قهره للإمام، فقد أفلت حكومته، ومني جيشه بانقلاب رهيب قد مزّقته الفتن والأهواء، يأمره فلا يطيع، ويدعوه فلا يستجيب، قد فقد في هذه الحرب أعلام أصحابه وخيرتهم أمثال عمّار بن ياسر وهاشم المرقال، وذو الشهادتين وأمثالهم من القادة المخلصين له.

ورجع جيش الإمام وهم يتشاتمون ويبغي بعضهم على بعض، فمنهم من يرى إيقاف القتال، ومنهم من أنكره، ونقم على الذاهبين إليه. وكان ممّا بُلي به الإمام من الهوان أنّه كان يسمع السبّ والشتم في الطريق، فقد استقبله قوم قائلين:

«قتلت المسلمين بغير جرم، وداهنت في أمر الله، وطلبت الملك، وحكّمت الرجال في دين الله، لا حكم إلّا لله».

وبلغ الحزن في نفس الإمام أقساه، فأجابهم:

«**حُكْمُ اللهِ فِي رِقابِكُم، ما يَحْبِسُ أَشْقاها أَن يَخْضِبَها مِن فَوْقِها بِدَمٍ**».

ثمّ جاء حتّى دخل الكوفة[1] والألم يحزّ في نفسه.

اجتماع الحكمين

وانتهت المدّة التي عيّنها الفريقان للتحكيم، وقد استردّ معاوية قواه، وتحقّق

---

(١) الغارات: ٣٠.

النصر الحاسم له بعد الانهيار الذي أصابه في أيّام صفّين، فأوفد إلى الإمام رسله يستحثّه على الوفاء بالتحكيم، وعدم تأجيله، وإنّما سارع إلى ذلك لعلمه بما مُني به جيش الإمام من الانقلاب والتفكّك، وإنّه على يقين أنّ التحكيم سيكون في صالحه، وذلك لعلمه بانحراف الأشعري عن الإمام.

وعلى أي حال، فقد أشخص العراقيّون أبا موسى الأشعري ومعه أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي، ومعهم عبدالله بن عبّاس، وكذلك أشخص معاوية ممثّلاً عنه ابن العاص ومعه أربعمائة من أصحابه، وقد زوّده بنصيحة عرّف فيها الأشعري قائلاً:

«إنّك قد رميت برجل طويل اللسان، قصير الرأي، فلا ترمه بعقلك كلّه»[1].

والتقى الفريقان في أذرح أو في دومة الجندل، واجتمع الماكر ابن العاص مع الخامل أبي موسى الأشعري، وطلب ابن العاص منه المهلة ثلاثة أيّام فأجابه إلى ذلك، وأفرد له مكاناً خاصّاً جعل يقدّم له الطعام والشراب حتّى استبطنه وأرشاه، ولم يفتح معه الحديث، وأخذ يبدي له الإكبار والتعظيم حتّى صار ألعوبة بيده يوجّهه حيث شاء، وكان من حديثه معه:

«يا أبا موسى، إنّك شيخ أصحاب محمّد ﷺ، وذو فضلها، وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأُمّة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها، فهل لك أن تكون ميمون هذه الأُمّة، فيحقن الله تعالى بك دماءها، فإنّه يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾، فكيف بمن أحيا هذا الخلق كلّه؟».

إيه يابن العاص متى كان هذا الصعلوك الفذّ شيخ صحابة رسول الله ﷺ؟ ومتى كان من ذوي الفضائل والسوابق في الإسلام؟

---

(١) العقد الفريد: ٣/١١٥.

قاتل الله السياسة الماكرة التي بنيت على الخداع والتضليل ، والتي تبنّاها هؤلاء الضالّون المضلّون أمثال ابن العاص .

وعلى أي حال ، فقد انخدع هذا القزم الحقير بما أضفاه عليه ابن العاص من الأوصاف الكريمة ، والنعوت الحسنة ، فطفق يسأله عن طرق الإصلاح التي تحقن الدماء قائلاً :

« من يكون ذلك ؟ » .

وكان ابن العاص يعرف ميول الأشعري واتّجاهه نحو عبدالله بن عمر ، فسارع قائلاً :

« من هو ؟ » .

« عبدالله بن عمر » .

فسرّ البهيمة بذلك ، وانبرى يطلب منه العهود والمواثيق على الوفاء بما قال ، وراح ابن العاص الذي لم يفقه الوفاء باليمين والعهود قائلاً :

« يا أبا موسى ، ألا بذكر الله تعالى تطمئنّ القلوب ، خذ من العهود والمواثيق حتّى ترضى » .

ولم يترك ابن العاص يميناً إلّا أقسم به ، وما قيمة الأيمان عند ابن العاص ، وهو الذي نشأ نشأة جاهليّة عابداً للأصنام والأوثان ، فأجابه الأشعري بالرضا والقبول ، وعيّنا وقتاً يذيعان ما اتّفقا عليه .

وأقبلت الساعة الرهيبة التي تنتظرها الجماهير ، فاتّجه الماكر الخبيث ابن العاص ومعه الخامل المنافق الأشعري نحو منصّة الخطابة ليذيعا ما اتّفقا عليه ، فقال ابن العاص لأبي موسى :

« قم فاخطب النّاس » .

« بل أنت قم فاخطبهم » .

وراح الماكر يخدع الأشعري قائلاً:

« سبحان الله ! أنا أتقدّم عليك ، وأنت شيخ أصحاب رسول الله ﷺ ، والله لا فعلت ذلك أبداً »[١].

وغزت هذه الكلمات المعسولة مشاعر الأشعري وهزّت عواطفه ، وراح يطلب منه الوفاء بما عاهده ، وأخذ يقسم له بالله العظيم على الوفاء ، وما أرخص اليمين الكاذب عند ابن العاص ، الذي لا يرجو لله وقاراً ، وكان ابن عبّاس حاضراً ، فالتفت إلى الأشعري يحذّره من مكيدة ابن العاص قائلاً:

« والله إنّي لأظنّه قد خدعك ، إن كنتما قد اتّفقتما على أمر ، فقدّمه قبلك فليتكلّم ، ثمّ تكلّم أنت بعده ، فإن عمرو رجل غدّار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت للنّاس خالفك ».

ولم يحفل الحمار بكلام ابن عبّاس ، وراح يشتدّ كالكلب نحو منصّة الخطابة ، فأعلن ما اتّفقا عليه قائلاً:

« أيّها النّاس ، إنّا قد نظرنا في أمرنا ، فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ، ولمّ الشعث ، وحقن الدماء ، وجمع الألفة ، خلعنا عليّاً ومعاوية ، فقد خلعت عليّاً كما خلعت عمامتي هذه ـ وأهوى إلى عمامته فخلعها ـ واستخلفنا رجلاً صحب رسول الله ﷺ ، وصحب أبوه النبيّ ، فبرز في سابقته ، وهو عبدالله بن عمر »[٢].

أفّ لك يا زمان ، وتعساً لك يا دهر ، أمثل هذا الحمار يتحكّم في شؤون المسلمين ؟ ويعزل وصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه ، والباثت على فراشه ، وحاميه من كيد الأعداء ، والذي كان منه بمنزلة هارون من موسى ؟

---

(١) العقد الفريد : ٣/٣١٥.

(٢) تاريخ الطبري : ٦/٣٩.

إنّ الذي خلع الإمام ليس هو الأشعري ، وإنّما أعضاء السقيفة والشورى ؛ هم الذين أقصوه عن مكانته ، والحكم في ذلك واضح كالشمس .

لقد عزل هذا الحمار الإمام أمير المؤمنين عملاق هذه الأُمّة ورائد العدالة الاجتماعيّة في الأرض الذي طوّق الدنيا بعلومه ومعارفه ، ورشّح لخلافة المسلمين عبدالله بن عمر الذي لا يحسن طلاق زوجته ـ على حدّ تعبير أبيه ـ .

إنّ من مهازل الزمن في ذلك العصر الذي هو من أسوأ العصور الإسلاميّة في أحداثه الجسام ، فقد أفلت تعاليم القرآن ، وأُخمدت أضواء الفكر .

وعلى أي حال ، فقد انبرى الماكر الخبيث ابن العاص فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثمّ قال :

« إنّ أبا موسى عبدالله بن قيس خلع عليّاً ، وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب ، وهو أعلم به ، ألا وإنّي خلعت عليّاً معه ، وأثبّت معاوية عليّ وعليكم ، وأنّ أبا موسى قد كتب في الصحيفة أنّ عثمان قد قُتل مظلوماً [١] شهيداً ، وأنّ لوليّه أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله ﷺ ، وصحب أبوه النبيّ »[٢] .

ثمّ أخذ يضفي على معاوية الصفات الكريمة التي لم يتّصف إلّا بضدّها ، ثمّ التفت إلى الجماهير قائلاً :

« إنّ معاوية هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان » .

إنّ معاوية جدير بأن يكون ملكاً على أولئك الأقزام الذين خلعوا الإسلام من ضمائرهم وقلوبهم »[٣] .

---

(١) إنّ الصحيفة التي تمّ الاتفاق عليها لم يذكر فيها المطالبة بدم عثمان عميد الأمويّين .

(٢) إنّ أباسفيان صحب النبيّ ﷺ في واقعة أُحد وغيرها ، التي قادها لحرب الإسلام .

(٣) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب : ١١/١٩٥ .

وعلى أي حال، فقد اشتدّ الأشعري وهو يلهث كالكلب نحو ابن العاص قائلاً:

«ما لك عليك لعنة الله، ما أنت إلّا كمثل الكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[1]».

فزجره ابن العاص قائلاً:

«لكنّك مثل الحمار يحمل أسفاراً».

لقد صدق كلّ منهما في وصف صاحبه، فقد مالا عن الحقّ واقترفا كلّ إثم وغدر.

لقد جرّ هذا التحكيم الظالم الذي فرض على الأمّة الويل والفتن وألقاها في شرّ عظيم.

لقد ماج الجيش العراقي الذي أجبر الإمام على التحكيم في الفتن وأيقن بالخيبة والخسران، وانهزم الأشعري نحو مكّة وهو يصحب معه العار والخزي له ولذرّيّته[2].

فقد غدر بالمسلمين، وأخلد لهم الفتن والمتاعب، والأشعري لم يؤمن بالله، ولم يصدق رسول الله ﷺ فيما أوصى به الأمّة في عترته، وقرنها بكتاب الله وكسفينة نوح، فإنّ من المؤكّد أنّه لم يع وصايا رسول الله ﷺ في عترته، واقتدى ببعض الصحابة الذين تنكّروا لهم.

---

(١) الأعراف ٧: ١٧٦.

(٢) احتقر المسلمون ذرّيّة هذا الصعلوك النذل، فقد سمع الفرزدق أبا بردة بن الأشعري يقول: «كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحكمين»، فقال له الفرزدق: «أما أحد الحكمين فمائق، وأمّا الآخر ففاسق، فكن ابن أيّهما شئت» ـ شرح النهج: ٢٥٣/١٩.

ونظر رجل إلى بعض ولدي أبي موسى يتبختر في مشيه فقال: «ألا ترون مشيته كأنّ أباه خدع ابن العاص».

افتخار ابن العاص

افتخر ابن العاص على أهل الشام بما حقّقه من إنجاز عظيم في خداعه للأشعري ، فقد أثر عنه من الشعر:

خَدَعْتُ أَبا موسى خَديعةَ شَيْظَمٍ[١]
يُخادِعُ سَقْباً في فَلاةٍ من الأرضِ

فَقُلتُ له : إنّا كَرِهنا كِلَيهِما
فَنَخْلَعُهُما قبلَ التَلاتلِ والدَّحْضِ[٢]

فإنّهما لا يُغضيانِ على قَذى
مِنَ الدَّهرِ حتّى يَفْصِلانِ عَلىٰ أمْضِ[٣]

فطاوَعَنِي حَتّىٰ خَلَعْتُ أخاهُمُ
وصارَ أَخونا مُسْتَقيماً لَدَى القَبْضِ

وإنَّ ابْنَ حَربٍ غَيرُ مُعْطِيهمُ الوَلا
ولا الهاشِميُّ الدَّهرَ أَو ربعُ الحَمْضِ

وأعرب ابن العاص بهذه الأبيات عن خدبعته للأشعري ، وأنّه حقّق الانتصار الحاسم في هذا التحكيم.

وردّ ابن عبّاس على ابن العاص بهذه الأبيات :

---

(١) الشيظم : الطويل الجسم ، الفتى من الناس . والسقب : ولد الناقة .

(٢) التلاتِل : الشدائد . الدحض : الزلل .

(٣) الأمض : الباطل .

كَـذَبْتَ وَلكِنْ مِثْلُكَ اليومَ فاسِقٌ
عَلىٰ أمرِكُمْ يَبغي لنا الشَّرَّ والعَزْلا
وتَزْعُمُ أنَّ الأمرَ مِنكَ خديعةٌ
إلَيهِ وَكُلَّ الْقَوْلِ في شأنِكُم فَضلا
فَأنتُمْ ورَبِّ البَيتِ! قَد صارَ دينُكُم
خِلافاً لدينِ المُصطَفَى الطيِّبَ العَدْلا
أعادَيْتُمْ حُبَّ النَّبيِّ ونَفسَهُ
فَما لَكُمْ مِنْ سابِقاتٍ ولا فَضْلا
فَأنتُمْ ورَبِّ البَيتِ! أخْبَثُ مَنْ مَشىٰ
عَلى الأرْضِ ذا نَعْلَيْنِ أو حافياً رِجْلا
غَدَرْتُم وَكانَ الغَدْرُ مِنكُم سَجيَّةً
كأنْ لمْ يكُنْ حَرْثاً ولا لَم يَكُنْ نَسْلا[1]

فرح الشاميّين

ولمّا أُذيع ما أدّى إليه التحكيم من عزل الأشعري للإمام عمّت المسرّات والأفراح أهل الشام ، وطابت نفوسهم بفوز معاوية وأُفول دولة الإمام ، وشمتوا بالعراقيّين ، وقد أعلن ذلك شاعرهم كعب بن جعيل بقوله :

كَأنَّ أبا موسىٰ عَشِيَّةَ أذرُحٍ   يَطوفُ بِلُقْمانَ الحَكيمِ يُوارِبُهُ

(١) وقعة صفين : ٦٣٣.

فَلَمَّا تلاقَوا في تُراثِ مُحَمَّدٍ ... نَمَتْ بابْنِ هندٍ في قُريشٍ مَضاربُهْ
سَعَى بابنِ عَفّانٍ لِيُدرِكَ ثأرَهُ ... وأوْلَى عِبادِ اللهِ بالثأرِ طالبُهْ
وقَدْ غَشِيَنا في الزُّبيرِ غَضاضَةٌ ... وَطَلْحَةُ إذْ قامتْ عليهِ نَوادِبُهْ
فرَدَّ ابنُ هندٍ مُلْكَهُ في نِصابِهِ ... وَمَنْ غالبَ الأقدارَ فاللهُ غالِبُهْ
وما لابنِ هندٍ في لُؤَيِّ بنِ غالبٍ ... نَظيرٌ وإنْ جاشَتْ عَليه أقارِبُهْ
فهٰذاكَ مُلكُ الشّامِ وافٍ سَنامُهُ ... وهذاكَ مُلْكُ القَومِ قَدْ جُبَّ غارِبُهْ
يُحاوِلُ عبدُاللهِ عَمْراً وإنّهُ ... لَيَضْرِبُ في بَحرٍ عَريضٍ مَذاهِبُهْ
دَحا دَحْوةً نَجلاءَ أوْدَتْ بِنَفْسِهِ ... إلى أَسْفَلِ المَهْوَىٰ ظُنونٌ كَواذِبُهْ[١]

حكى هذا الشعر استهانة ابن العاص بالأشعري ، وأنّه ليس كفواً له ، كما حفلت هذه الأبيات بشماتة الشاميّين بالعراقيّين ، والاستهانة بهم ، فإنّهم بعدما أشرفوا على الفتح ولم تبق إلّا لحظات حتّى ينالوا الفتح وتنتهي المعركة ، فكانوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكالاً.

رسالة ابن العاص لمعاوية

وبعث ابن العاص إلى سيّده معاوية رسالة يهنّيه بما أحرزه من النصر الحاسم في خديعة الأشعري ، وما أعقبته خديعته من الفتن والاختلاف في جيش الإمام ، وكتب في آخر رسالته هذه الأبيات :

أتَتْكَ الخِلافةُ مَزْفُوفةً ... هَنيئاً مَريئاً تُقِرُّ العُيونا

---

(١) وقعة صفّين : ٦٣٢.

تُــزَفُّ إليكَ كَـزَفِّ العَـروسِ ... بأَهْوَنَ مِـنْ طَـعْنِكَ الدّارِعِـينا

ومـا الأشعريُّ بـصَلْدِ الزِّنـادِ ... ولا خامِلِ الذِّكرِ في الأشعَرِينا

ولكِــــنْ أتِــيحَتْ له حَـيَّةٌ ... يَـظَلُّ الشُّجاعُ لها مُـسْتَكِينا

فَــقالوا وَقُـلْتُ وَكُـنْتُ امْـرَأً ... أُجَهْجِهُ بـالخَصْمِ حَتّى يَـلِينا

فخُذْها ابنَ هِـندٍ عـلى بَـأسِها ... فَـقَدْ دافَـعَ اللهُ مـا تَـحْذَرُونا

وقَدْ صَـرَفَ اللهُ عَـنْ شـامِكُمْ ... عَـدُوّاً شَـنِيّاً وحَـرْباً زَبُـونا (١)

لقد أقام ابن العاص بمكره دولة معاوية، وأنقذها من السقوط بعدما أشرف الجيش العراقي على النصر والفتح.

مآسي الإمام

انتهى النبأ المؤلم بأمر التحكيم إلى الإمام المظلوم، فذهبت نفسه شعاعاً، وبلغ الحزن به أقصاه على ما عاناه من المحن الشاقّة من ذلك المجتمع المصاب بأخلاقه ودينه، فقام فيه خطيباً، صعد في خطابه آلامه، استمعوا إلى خطابه وانظروا إلى لوعته وأساه، قال ﷺ:

«الْحَمْدُ للهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلا اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ،

---

(١) وقعة صفين: ٥٤٧.

وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ.

وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحى الْغَدِ

أَلا إِنَّ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ اخْتَرْتُمُوهُما حَكَمَيْنِ قَدْ نَبَذا حُكْمَ الْكِتابِ وَراءَ ظُهُورِهِما، وَارْتَأَيا الرَّأْيَ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِما، فَأَماتا ما أَحْياهُ الْقُرْآنُ، ثُمَّ اخْتَلَفا فِي حُكْمِهِما، فَكِلاهُما لا يَرْشُدُ وَلا يُسَدَّدُ فَبَرِئَ اللهُ مِنْهُما وَرَسُولُهُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَعِدُّوا لِلْجِهادِ، وَتَأَهَّبُوا لِلْمَسِيرِ، وَأَصْبِحُوا فِي مُعَسْكَرِكُمْ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ إِنْ شاءَ اللهُ»[1].

وحكت هذه الخطبة الآلام القاسية التي تجرّعها الإمام عليه السلام من هؤلاء الذين لا رشد لهم، ولا إيمان لهم، فقد أجبروه على التحكيم، وأجبروه على انتخاب الأشعري الحمار ومعه الماكر ابن العاص ليحكما بين إمام المتّقين وبين زعيم الملحدين والضالّين معاوية، فأي ضلال مثل هذا الضلال؟ وأي بلاء مثل هذا البلاء.

تمرّد المارقين

لقد أفلت دولة الحقّ والعدل، وانهارت حكومة المظلومين والبؤساء، وانطوت أعلامها، فقد تمرّد جيش الإمام ومني بانقلاب أدّى إلى تفلّل جميع قواعده وفرقه،

---

(١) نهج البلاغة: ١/٨٥.

ولم تعد عند الإمام قوّة عسكريّة يستطيع أن يحارب بها معاوية أو يحمي بها المواطنين، ويوفّر لهم الأمن العامّ، ويستند هذا الانقلاب المدمّر إلى الخوارج الذين أجبروا الإمام على إيقاف القتال بعدما أحرز الانتصار، كما أجبروه على انتخاب المنافق الحمار أبي موسى الأشعري مع علمهم بانحرافه وعدائه للإمام، ولمّا حكم بعزله له حدثت الفتنة الكبرى في الجيش، فرفع الخوارج شعارهم «لا حكم إلّا لله».

وعلّق الإمام عليه أنّه كلمة حقّ يراد بها باطل، وسرعان ما تحوّل هذا الشعار إلى حكم النطع والسيف، وإشاعة الإرهاب والجريمة بين النّاس.

وعلى أي حال، فقد استعدّ الإمام لحرب الطاغية معاوية، وإنقاذ المسلمين من شرّ هذا الذئب الجاهلي، فأخذ الخوارج يمعنون في الفساد والإخلال بالأمن العامّ، فقد اجتاز عليهم عبدالله بن خبّاب بن الأرت، وهو من أعلام الصحابة والسابقين للإسلام، ومعه زوجته، وقد أشرفت على الولادة، فسألوه عن اسمه، فأخبرهم به، ثمّ سألوه عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فأثنى عليه، فقتلوه ثمّ عمدوا إلى زوجته وهي ترتعد من الخوف فذبحوها واستخرجوا جنينها فذبحوه، وعمدوا إلى ثلاث نسوة كانت معه فذبحوهنّ وفيهنّ أمّ سنان الصيداويّة، وكانت قد صحبت النبيّ صلى الله عليه وآله.

وأخذ هؤلاء الأرجاس ينشرون الرعب بين النّاس، قد استولى عليهم الشيطان وأنساهم ذكر الله تعالى، فأوفد إليهم الإمام الحرث بن مرّة العبدي يسألهم عن الفساد الذي أحدثوه، ويطلب منهم تسليم الذين استحلّوا قتل المسلمين ليقتصّ منهم، فلمّا أراد أن يبلغهم رسالة الإمام عمدوا إلى قتله.

قتالهم

وخاف أصحاب الإمام أن يسير بهم إلى حرب معاوية ويترك الخوارج من ورائهم يستبيحون أعراض النّاس وأموالهم بعد ما قتلوا الصحابي عبدالله بن خبّاب وزوجته، وطلبوا من الإمام أن يناجزهم الحرب، فأجابهم إلى ذلك، فسار بجيشه إليهم،

فلمّا انتهوا إلى النهروان ، حيث كانوا مقيمين فيه ، أرسل إليهم أن يمكّنوه من قتلة عبدالله بن خبّاب ليقتصّ منهم ، فصاحوا جميعاً بصوت عالٍ :

« نحن جميعاً قتلنا عبدالله » .

ثمّ قالوا :

« ليس بيننا وبينك إلّا السيف إلّا أن تفرّ بالكفر وتتوب كما تبنا » .

وردّ الإمام على أولئك الوحوش الحقراء قائلاً :

« أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ[١] ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ[٢] . أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ ! ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[٣] ! فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ ، وَارْجِعُوا عَلَىٰ أَثَرِ الْأَعْقَابِ .

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلّاً شَامِلاً ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً »[٤] .

وأخذ الإمام يعظهم ، فتسلّل كثير منهم وعادوا إلى الكوفة وقسم التحق بجيش الإمام ، وفريق اعتزل الحرب ، ولم يبق منهم إلّا ذو الثفنات عبدالله بن وهب زعيمهم ومعه ثلاثة آلاف ، ويئس الإمام منهم ، فعبّأ جيشه تعبئة عامّة ، وأمر أن لا يبدأوهم بقتال حتّى يكونوا هم الذين يبدأون به ، ولمّا نظر الخوارج إلى ذلك تهيّأوا لحربه ، وهتف واحد منهم :

« هل من رائح إلى الجنّة ؟ » .

---

(١) الحاصب : ريح شديدة .

(٢) الآبر : الذي يُأبّر النخل ، أي يصلحه .

(٣) الأنعام ٦ : ٥٦ .

(٤) نهج البلاغة : ١/١٥٩ .

فصاحوا جميعاً:

«الرواح إلى الجنّة»، ثمّ حملوا حملة منكرة على جيش الإمام وهم يهتفون:

«لا حكم إلّا لله».

وانفرجت لهم خيل الإمام فرقتين: فرقة تمضي إلى الميمنة، وفرقة تمضي إلى الميسرة، واندفع الخوارج بين الفرقتين، فتلقّاهم أصحاب الإمام بالنبل، وما هي إلّا ساعة حتّى هلكوا عن آخرهم[1].

وقيل للإمام:

«إنّهم هلكوا جميعاً».

وراح الإمام يحدّثهم بما أخبره به النبيّ ﷺ من أنّهم لم يهلكوا جميعاً، وسيدبن بفكرتهم من في أصلاب الرجال قائلاً:

«كَلَّا وَاللهِ! إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ[2]، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ».

ولمّا وضعت الحرب أوزارها طلب الإمام من أصحابه أن يلتمسوا ذا الثدية في القتلى، ففتّشوا عنه فلم يظفروا به، فأمرهم ثانياً أن يبحثوا عنه وقال:

«وَاللهِ! ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، وَيْحَكُمُ الْتَمِسُوا الرَّجُلَ فَإِنَّهُ فِي الْقَتْلَى».

ومضوا يبحثون عنه، فوجدوه بين القتلى، فأخبروا الإمام بذلك فخرّ ساجداً، وكذلك سجد بعض أصحابه، ولمّا رفع الإمام رأسه من السجود قال لأصحابه:

---

(١) الملل والنحل: ١/١٥٩، وجاء فيه: «إنّه انهزم منهم اثنان إلى همدان، واثنان إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، وواحد إلى تلّ موذان، وأخذوا يسبّون أفكارهم حتّى ظهرت بدعهم».

(٢) قرارات النساء: أرحامهنّ.

«ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، قَتَلْتُم شَرَّ النّاسِ»[١].

ثمّ حدّثهم بما سمعه من رسول الله ﷺ في الخوارج وفي ذي الثدية:

«قالَ رَسولُ اللهِ لي: سَيَخْرُجُ قَومٌ يَتَكَلَّمُونَ بِكَلامِ الْحَقِّ، لا يُجاوِزُ حُلُوقَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَقِّ خُرُوجَ السَّهْمِ ـأَوْ مُرُوقَ السَّهْمِ ـ، سِيْماهُمْ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلاً مُخْدَجَ الْيَدِ[٢] فِي يَدِهِ شَعراتٌ سُودٌ، فَإِنْ كانَ فِيهِمْ فَقَدْ قَتَلْتُمْ شَرَّ النّاسِ».

وأمر الإمام بإحضار جثّته، فأُحضرت له، فكشف عن يده فإذا على منكبه ثدي كثدي المرأة، وعليها شعرات سود تمتدّ حتّى تحاذي باطن يده الأُخرى، ولمّا رأى الإمام ذلك خرّ ساجداً.

ثمّ أمر بدفن جثث القتلى من الجانبين، وقسّم أسلحتهم على جيشه، ثمّ ردّ الأمتعة والعبيد إلى أهليهم كما فعل مثل ذلك في حرب الجمل[٣].

وانتهت بذلك حرب المارقين الذين مرقوا من دين الله تعالى وقد شكّلوا حزباً ثوريّاً واستحلّوا دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وأشاعوا الفتن والإرهاب بين النّاس.

---

(١) حلية الأولياء: ٩٩/٧، وجاء فيه عن محمّد بن قيس الهمداني، قال:
كنت مع عليّ يوم النهروان فقال: «التمسوا ذا الثدية»، فجعلوا لا يجدونه، فجعل جبين عليّ يرشح عرقاً ويقول: «ماكذبت ولاكذّبت فالتمسوه» فوجدوه في دالية أو جدول فأُتي به إلى عليّ فخر ساجداً... الخ.

(٢) أي ناقص اليد، والخداج ـ بكسر الخاء ـ: النقصان.

(٣) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ٢٠٨/١١.

المحن الشاقّة

وامتحن الإمام بعد حرب المارقين امتحاناً قاسياً وشديداً، فقد ألمّت به الأحداث الجسام، وطويت معالم دولته، وانتصرت الوثنيّة القرشيّة التي يمثّلها معاوية بغير جهد وعناء، وقد أعلن ذلك بقوله:

«لقد حاربت عليّاً بعد صفّين بغير جيش ولا عناء»[1].

لقد دانت لابن هند الرقاب، وخضعت له الوجوه والأعيان، وأعلن أنّه الحاكم العامّ على جميع الأقاليم الإسلاميّة.

وعلى أي حال، فنعرض - بإيجاز - إلى بعض ما مني به الإمام من المحن القاسية وهي:

تفلّل جيشه

وانهار جيش الإمام، وتفلّلت جميع فرقه، ولم يعد عنده أيّة قوّة عسكريّة بعد أحداث صفّين والنهروان يستطيع أن يحارب بها معاوية.

روى البلاذري: «إنّ معاوية بعث عمارة بن عقبة إلى الكوفة يتجسّس له عن حالة جيش الإمام، فكتب إليه خرج على عليّ أصحابه ونسّاكهم فقتلهم، فقد فسد عليه جنده وأهل مصره، ووقعت بينهم العداوة وتفرّقوا أشدّ الفرقة».

وغمرت معاوية موجات من الفرح والسرور، فالتفت إلى الوليد بن عتبة وهو غارق في الضحك:

«أترضى أن يكون أخوك لنا عيناً؟».

فضحك الوليد وقال له:

---

(١) أنساب الأشراف: ١/٢٠٠.

«إنّ لك في ذلك حظّاً ونفعاً».

وخاطب الوليد أخاه:

فإن يَكُ ظَنّي بِابْنِ أُمّي صادِقاً ... عِمارةَ لا يُطْلَبْ بِذِحلٍ ولا وَتْرِ

مقيمٌ واقبالُ ابنِ عفّانَ حَولَهُ ... فيَمْشي بها بَيْنَ الخُوَرْنَقِ والجِسْرِ

وَتَمْشي رَخِيَّ البالِ مُنْتَشِرَ القُوى ... كَأَنَّكَ لَمْ تَشْعُر بِقَتْلِ ابْنِها عَمْرو[1]

لقد منيت قوّات الإمام بالفتنة والخلاف والسأم من الحرب، ولم يكن باستطاعة الإمام أن يرجعهم إلى الطاعة، ويقضي على أسباب تمرّدهم، وقد بلغ من خلعهم لطاعته أنّه أقام بالنخيلة ليزحف إلى حرب معاوية، فجعل الجيش يتسلّلون إلى الكوفة، ولم تبق معه إلّا فئة قليلة لا يستطيع أن يحارب بها، فاضطرّ إلى الرجوع إلى الكوفة[2].

وكان من أخبث المخذّلين والمخرّبين في جيش الإمام هو الخائن الأشعث بن قيس، فقد أرسل إليه معاوية الأموال الكثيرة، ومنّاه بالثراء العريض، والمناصب العليا في الدولة، فاستجاب له وأخذ ينشر الأراجيف في جيش الإمام، حتّى خلعوا الطاعة، وأعلنوا العصيان لأوامره.

أمّا جيش معاوية فقد سادت فيه روح الطاعة والتماسك. يقول الحجّاج بن خزيمة لمعاوية:

«إنّك تقوى بدون ما يقوى به عليّ؛ لأنّ معك قوماً يقولون إذا أمسكت، ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت، ومع عليّ قوم يقولون إذا قال، ويسألون

---

(١) الغارات: ٣١/١.

(٢) موسوعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ١٥/١١.

إذا أمسك »[١].

وكان باستطاعة الإمام أن يرجع جيشه إلى الطاعة ويقضي على تمرّدهم وذلك بسلوك أمور منها:

١ ـ إرشاء الزعماء.

٢ ـ إعدام المتمرّدين.

٣ ـ استعمال السياسة الملتوية.

وابتعد الإمام عن ذلك كلّه، فلم يسلك أي طريق يبعده عن دينه ويأباه ضميره الحيّ المترع بتقوى الله تعالى وطاعته، وقد صرّح عليه السلام بذلك بقوله:

« **وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلٰكِنِّي لَا أَرىٰ إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي. أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ! لَا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْبَاطِلَ، وَلَا تُبْطِلُونَ الْبَاطِلَ كَإِبطَالِكُمُ الْحَقَّ** »[٢].

لقد أمعن جيش الإمام بالخذلان والانغماس بالباطل، وكان الإمام باستطاعته أن يقيم أودهم، ويحملهم على الطاعة، ولكنّ ذلك لا يكون إلّا بارتكاب ما حرّمه الإسلام.

احتلال مصر

ولم تقف محنة الإمام المظلوم الممتحن عند حدّ، فقد أخذت الكوارث تتتابع عليه، فقد قوى سلطان معاوية واستحكم أمره، وأجمع رأيه على احتلال مصر،

---

(١) الأخبار الطوال: ١٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ١١٨/١.

فجهّز جيشاً لاحتلالها بقيادة ابن العاص ، وأخذ الإمام يحفّز جيشه لصدّ العدوان الأموي على مصر ، فلم يستجب له أحد ، وبعد الالحاح الشديد عليهم استجاب له بعض الجنود على كره ، وساروا مرغمين كأنّهم يساقون إلى الموت ، ولم يلبثوا إلّا قليلاً حتّى وافت الأنباء الإمام باحتلال مصر ، وأنّ عامله عليها محمّد بن أبي بكر قد قُتل ، وأحرقت جثّته ، فردّ جنده إلى الكوفة ، وخطب خطاباً مروّعاً نعى فيه تخاذل جيشه ، وخور عزائمهم .

وعلى أي حال ، فإنّ احتلال مصر قد فتّ في عضد الإمام وقوّى شوكة معاوية ، وبعث فيه العزم لاحتلال جميع المناطق الخاضعة لحكم الإمام حتّى الكوفة التي هي عاصمته .

الغارات على الحجاز واليمن

وأمعن الطاغية في الإطاحة بحكومة الإمام ، فأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف بقيادة الإرهابي المجرم بسر بن أبي أرطاة للغارة على الحجاز واليمن ، وسار الجيش لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى المدينة ، فلم يجد من أهلها أيّة مقاومة ، فصعد بسر المنبر ، ورفع عقيرته يندب عميد الأمويّين عثمان بن عفّان وينشر الرعب والخوف قائلاً :

« يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إليَّ معاوية ما تركت بها محتلماً » .

وغادر المجرم المدينة متّجهاً إلى مكّة فاحتلّها وأخذ البيعة قسراً من أهلها إلى معاوية ، ثمّ انعطف بعد ذلك إلى احتلال اليمن ، وكان الوالي عليها عبيدالله بن العبّاس ، فانهزم منها واتّجه نحو الكوفة ، فأخذ بسر البيعة لمعاوية منهم ، وفتّش دار عبيدالله فوجد فيها طفلين له فقتلهما [١] .

---

(١) تاريخ أبي الفداء : ١/١٨٠ .

فقالت له إحدى سيّدات اليمن :

« إنّ سلطاناً لا يقوم إلّا بقتل الأطفال لسلطان سوء ».

وهامت أمّ الطفلين على وجهها وهي مذهلة مرعوبة تندب ولديها بذوب روحها قائلة :

يـا مَـنْ أَحَسَّ بِـإبْنَيَّ اللَّـذَيْنِ هُـما
كَـالدُّرَّتَيْنِ تَشَـظّى عَـنْهُما الصَّـدَفُ !

يـا مَـنْ أَحَسَّ بِـإبْنَيَّ اللَّـذَيْنِ هُـما
قَلْبي وسَمْعي فَقَلْبي اليَومَ مُخْتَطَفُ !

مَـنْ ذَلَّ والِـهَةً حَـرّى وَثـاكِـلَةً
عَـلىٰ صَـبِيَّيْنِ ضَـلّا إذ غَـدا السَّـلَفُ

خُبِّرْتُ بُسْراً وما صَـدَّقْتُ مـا زَعَـموا
مِنْ إنْكِهِمْ وَمِنَ القَـولِ الَّـذي اقْـتَرفُوا

انْـحَى عَـلىٰ وَدَجَـيْ إبْـنَيَّ مُـرْهَفَةً
مَشْـحوذَةً وَكـذاكَ الأَمـرُ مُـقْتَرَفُ[1]

وعمد هذا الإرهابي الخبيث إلى نشر الفزع والخوف بين النّاس ، فسبى النساء ، وفعل أفحش القبائح والمنكرات إرضاء لسيّده معاوية .

ولمّا انتهى النبأ المفزع إلى الإمام المظلوم انهارت قواه ومزّق الأسى قلبه ، وخطب في جيشه المنحطّ خطبة حكت لوعته وأساه جاء فيها :

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٤٤٥/١.

«أَنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ[١]، وَإِنِّي وَاللهِ! لَأَظُنُّ أَنَّ هٰؤُلاءِ الْقَوْمَ ـ يعني أهل الشام ـ سَيُدَالُونَ[٢] مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي البَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ. فَلَو ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ[٣] لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ[٤].

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي.

اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ المِلْحُ[٥] فِي المَاءِ، أَمَا وَاللهِ! لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ.

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الحَمِيمِ»

ثمّ نزل عن المنبر[٦] وهو غارق في الأسى والشجون، قد استولى عليه اليأس من جيشه الذي أصبح أعصاباً ميّتة خالية من الشعور والإحساس.

---

(١) اطّلع اليمن: أي بلغها، واحتلّتها قوّاته.

(٢) سيدالون: أي ستكون لهم الدولة، وذلك بسبب اجتماع كلمتهم وتفرّق كلمة جيش الإمام.

(٣) القَعْب ـ بالفتح ـ: القدح الكبير.

(٤) علاقته ـ بكسر العين ـ: ما يتعلّق به القعب من ليف وغيره، وقد اتّهم الإمام جيشه باللصوصية والسرقة.

(٥) ماث: أي ذاب.

(٦) نهج البلاغة: ١/٦٠.

الغارة على العراق

وأيقن معاوية بانهيار جيش الإمام، وفقده لجميع المعنويات العسكريّة، وأن لا قدرة مطلقاً للإمام على مقاومته، فشكّل أربع فرق للغارة على العراق بعدما أحرزه من النصر الهائل في احتلاله لمصر وغيره من مناطق الشرق الأوسط، وهذه بعض المناطق التي غارت عليها جيوش معاوية:

١ ـ عين التمر

أرسل معاوية النعمان بن بشير الأنصاري في ألف جندي لغزو عين التمر، وإشاعة الرعب والخوف لأهلها، وكان الوالي عليها مالك بن كعب ومعه كتيبة تبلغ ألف مقاتل، ولم يعلم بغزو أهل الشام، فأذن لجنده بإتيان أهاليهم، وبقي معه مائة رجل، فدهمه الجيش الأموي، فقاومهم مقاومة باسلة، والتحق به خمسون رجلاً، فلمّا رآهم النعمان خشي منهم وولّى منهزماً، ولمّا انتهت الأنباء إلى الإمام قام خطيباً في جيشه يدعوهم إلى نجدة عامله على عين التمر قائلاً:

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَكُلَّما أَقْبَلَ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بابَهُ، وَانْحَجَرَ فِي بَيْتِهِ انْحِجارَ الضَّبِّ، وَالضَّبُعِ؟ الذَّلِيلُ وَاللهِ! مَنْ نَصَرْتُمُوهُ، وَمَنْ رَمَىٰ بِكُمْ فَقَدْ رَمىٰ بِأَفْوَقَ ناصِلٍ، فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، يَوْماً أُناجِيْكُمْ وَيَوْماً أُنادِيْكُمْ، فَلَا أَحْرارٌ عِنْدَ اللِّقاءِ، وَلَا إِخْوانٌ عِنْدَ النَّجاءِ»[1].

حكى هذا الخطاب التخاذل الذي مُني به جيش الإمام ويأسه منهم، فقد خيّم عليهم الذلّ والخوف.

---

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ١١/٢٢١.

٢ ـ هيت

وجّه معاوية للغارة على هيت سفيان بن عوف ، وأمدّه بستّة آلاف مقاتل ، وعهد إليه أن يأتي بعد الغارة عليها إلى الأنبار والمدائن ، فيوقع بأهلها القتل والدمار ، وسار الجيش لا يلوي على شيء حتّى انتهى إلى هيت ، فلم يجد بها أحداً ، فانعطف نحو الأنبار فوجد بها مسلحة للإمام تضمّ مائتي رجل عليهم أشرس بن حسّان البكري ، فتلاحم الفريقان وقتل أشرس مع ثلاثين رجلاً من أصحابه ، ثمّ نهبوا ما في الأنبار من الأموال وقفلوا راجعين إلى سيّدهم معاوية وهم في أقصى الفرح لما أحرزوه من النصر والنهب للأموال[١] .

ووافت الأنباء الإمام المظلوم الممتحن فبلغ به الحزن أقصاه ، وكان مريضاً لا يتمكّن من الخطابة ، فكتب كلمة ألقاها بالنيابة عنه شخص ، وكان الإمام قريباً منه ، وهذا نصّها :

«أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَىٰ ، وَدِرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ ، وَجُنَّتُهُ الوَثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ ، وَشَمِلَهُ البَلَاءُ ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالقَمَاءَةِ[٢] ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ الْأَسْدَادُ[٣] ، وَأُدِيلَ الحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الجِهَادِ ، وَسِيمَ الخَسْفَ[٤] ، وَمُنِعَ النَّصَفَ .

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ قِتَالِ هٰؤُلَاءِ القَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَسِرّاً وَإِعْلَاناً ،

---

(١) تاريخ ابن الأثير : ٣/١٨٩ .

(٢) القماءة : الذلّ والصغار .

(٣) الأسداد : هي الحجب التي تحول بين الإنسان ورشده .

(٤) الخسف : الذلّ .

وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ! مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ[١] إِلَّا ذَلُّوا. فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ. وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ[٢] وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ البَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى المُعَاهَدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا[٣] وَقَلَائِدَهَا وَرُعَاثَهَا[٤]، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالإِسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ. ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ[٥]، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً.

فَيَا عَجَباً! عَجَباً -وَاللهِ!- يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن اجْتِمَاعِ هٰؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً[٦]، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرمَى، يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ! فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الحَرِّ [الصَّيف]، قُلْتُمْ: هٰذِهِ حَمَارَةُ القَيْظِ[٧] أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ[٨] عَنَّا الحرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ

---

(١) عقر الدار: وسطها.

(٢) أخو غامد: هو سفيان بن عوف من بني غامد قبيلة باليمن.

(٣) أي قلادتها.

(٤) رعائها: القرط.

(٥) الكلم: الجرح.

(٦) الترح: الحزن.

(٧) حمارة القيظ: شدّة الحرّ.

(٨) السبخ: التخفيف.

قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبَارَةٌ[١] القُرّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ الحَرِّ وَالقُرّ[٢]؟ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ! مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ، مَعْرِفَةً ـ وَاللهِ! ـ جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً[٣].

قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ[٤] أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ وَالخِذْلَانِ، حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْش: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلٰكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالحَرْبِ.

للهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً[٥]، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ العِشْرِينَ، وَهَأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ[٦] عَلَى السِّتِّينَ! وَلٰكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ!»[٧].

حكت هذه الخطبة لوعة الإمام وأساه على ما مني به جيشه من الانقلاب على عقبيه، فقد تجرّع منهم الويلات والكوارث التي لا توصف لمرارتها وقسوتها، فلم يعد للإمام الممتحن أي وجود لا لحكومته ولا سلطته.

---

(١) الصبارة: الشتاء.

(٢) القر: شدّة البرد.

(٣) السدم: الهمّ.

(٤) نغب التهمام: أي تجرّعت منكم الهمّ والأسى.

(٥) المراس: المعالجة والمزاولة.

(٦) ذرفت: أي أشرفت أو زدت.

(٧) نهج البلاغة: ١/٦٩ ـ ٧٠.

٣ ـ واقصة

وجّه معاوية الضحّاك بن قيس الفهري إلى واقصة ليروّع شيعة الإمام، وقد ضمّ إليه ثلاثة آلاف جندي، وسار الضحّاك إلى واقصة فنهب الأموال، وقتل كلّ من ظنّ أنّه من شيعة الإمام، ثمّ سار إلى القطقطانة فأشاع فيها القتل والدمار، ثمّ سار إلى السماوة فاقترف فيها كلّ ما حرّم الله تعالى من إثم، ثمّ قفل راجعاً إلى الشام.

ولمّا وافت الأنباء المرجفة إلى الإمام بلغ به الحزن أقصاه، وتمنّى مفارقة الحياة، ودعا جيشه لصدّ هذا العدوان، فلم يستجب له أحد، فقام خطيباً عرض في خطابه لمحنه الكبرى وبلائه العظيم من ذلك المجتمع الذي لم يعرف الكرامة والإنسانيّة، ومن بنود خطابه قوله:

«وَاللهِ! لَوَدِدْتُ أَنَّ لِيْ بِكُلِّ ثَمانِيَةٍ مِنْكُمْ رَجُلاً مِنْهُمْ، وَيْحَكُمْ! اُخْرُجُوا مَعِي ثُمَّ فِرُّوا عَنِّي ما بَدا لَكُمْ!! فَوَاللهِ! ما أَكْرَهُ لِقاءَ رَبِّي عَلىٰ نِيَّتِي وَبَصِيرَتِي، وفِي ذٰلِكَ رَوْحٌ لي عَظِيمٌ، وَفَرَجٌ مِنْ مُناجاتِكُمْ وَمُقاساتِكُمْ»[1].

وسار الإمام وحده لصدّ هذا الاعتداء فلم يلتحق به أحد، وسارع ابن أخيه عبدالله بن جعفر فالتحق به، وسارعت بعض قطعات الجيش فالتحقت به، فسرّح بهم لطلب الضحّاك، وجعل قيادتهم بيد حجر بن عدي، فساروا في طلب الضحّاك فلم يدركوه.

٤ ـ الغارة على الكوفة

أيقن معاوية بالنصر الحاسم، والظفر بإسقاط حكومة الإمام فصمّم على احتلال الكوفة التي هي عاصمة الإمام، فبعث جيوشه إليها، ولم تجد أي مقاومة منها،

---

(١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٥٣٧/٢.

فقد خلد جيش الإمام إلى التمرّد والعصيان ، وقد نشرت فوّات معاوية الرعب في الكوفة ، ولم تكن عند الإمام أية قوّة لحماية الأمن ، وإنقاذ المواطنين من الاعتداء عليهم ، وكان ذلك من أعظم ما مُني به الإمام من الخطوب والكوارث .

عبث الخوارج

من المحن الشاقّة التي ابتلي بها الإمام هي عبث الخوارج واعتدائهم الصارخ عليه ، فقد قطع ابن الكوّاء عليه خطابه وتلا قول الله تعالى : ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ ، فردّ عليه الإمام بآية أُخرى : ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ ، لقد أمن هؤلاء الأنذال بطش الإمام وعقوبته ، وأطمعهم عدله وبسطه للحريّات العامّة ، فراحوا يجاهرونه بالإنكار .

ومن العصابة المارقة من الدين الخريت بن راشد ، وهو من أعلام الخوارج ، فقد قابل الإمام في ثلاثين من أصحابه وقال له :

« يا عليّ ، والله لا أُطيع أمرك ، ولا أُصلّي خلفك ، وإنّي غداً مفارقك » .

فلطف به الإمام وحاججه ، وخلّى سبيله ، ولم يأمر باعتقاله ، وقفل الخريت راجعاً إلى قومه من بني ناجية الذين تفانوا في حبّ عائشة فأحاطهم علماً بما جرى بينه وبين الإمام ، فأجمع رأيهم على إعلان الحرب على الإمام ، فأرسل الإمام إليهم جيشاً لردّهم إلى الطاعة ، أو مناجزتهم إن أبوا ذلك ، وزحف إليهم الجيش ، فلمّا التقى بهم جرت بينهما مناظرات إلّا أنّها لم تجد معهم شيئاً ، وأصرّوا على التمرّد ، والتحم الفريقان ولم يحرز أحدهما نصراً على الآخر ، وهرب الخريت مع أصحابه إلى البصرة ، وقفل جيش الإمام راجعاً إلى الكوفة .

وأرسل الإمام جيشاً آخر لمناجزته ، وأمر عامله على البصرة عبدالله بن عبّاس أن يمدّ الجيش بالسلاح والعتاد ، فأمدّهم بما يحتاجون إليه ، واحتدم القتال بينهما ، وقد بان الضعف في جيش الخريت ، وكاد يستولي عليه جيش الإمام ، إلّا أنّه انهزم

مع أصحابه في غلس الليل البهيم ، واتّجه صوب الأهواز ، وأخذ يثير فيها الفتن ويشيع الفساد ، ويدعو إلى التخلّي عن الإسلام ، فمنع العرب من إعطاء الزكاة ، كما منع النصارى من إعطاء الجزية ، وقد ارتدّ الكثيرون منهم عن الإسلام ، وقد ظهر أمره ، وقويت شوكته ، إلّا أنّ جيش الإمام أخذ يتابعه ، فقتله وقتل عصابة من جيشه ، وأسر جماعة منهم ، فمن أعلن الإسلام وتاب عفا عنه ، ومن لم يسلم أُخذ أسيراً إلى الكوفة[١].

وعلى أي حال ، فإنّ الذين حاربوا الإمام وناجزوه قد ارتدّوا عن الإسلام ، وانحرفوا عن الطريق القويم ، وساروا وراء أطماعهم ومصالحهم التي لا تتّفق مع الإسلام بصلة.

دعاء الإمام على نفسه

وأخذت المحن القاسية تلاحق الإمام يتبع بعضها بعضاً ، وكان من أنجحها وأقساها أنّه رأى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره قد تمّ ، ورأى نفسه في أرباض الكوفة قد احتوشته الذئاب والكلاب من الذين لا يرجون لله وقاراً ، فكان يأمر فلا يطاع ، ويدعو فلا يستجاب له ، وأصبح بمعزل تامّ عن جميع السلطات ، وأخذ يخبر جيشه عمّا سيلاقونه بعده من التنكيل والارهاق من السلطات الضالّة التي تحكم بلادهم قائلاً :

« أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلّاً شَامِلاً ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً . فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَكُمْ ، وَيُبْكِي عُيُونَكُمْ وَتَمَنَّوْنَ عَنْ قَلِيلٍ أَنَّكُم رَأَيْتُمُونِي فَنَصَرْتُمُونِي ، فَسَتَعْلَمُونَ حَقَّ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَلَا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ ».

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ١/٥٥٠.

وتحقّق ما أخبر به الإمام، فقد سلّط الله عليهم شرار خلقه، فأخذوا يمعنون في ظلمهم واستعبادهم وإرغامهم على الذلّ والعبوديّة، أمثال زياد بن أبيه، الذي كان يأخذ البريء بالسقيم، والمقبل بالمدبر، ويقتل على الظنّة والتهمة، وقد استيقظوا بعد أن حلّ بهم العذاب الأليم، وتمنّوا رجوع الإمام الذي جرّعوه الخطوب والمآسي والآلام.

وعلى أي حال، فقد أخذ الإمام يلحّ بالدعاء إلى الله تعالى أن ينقله إلى جواره، ويريحه من ذلك المجتمع الشقيّ، فقد روى البلاذري بسنده عن أبي صالح، قال:

«شهدت عليّاً وقد وضع المصحف على رأسه حتّى سمعت تقطّع الورق وهو يقول:

«اللّٰهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُهُمْ ما فِيهِ فَمَنَعُونِي ذٰلِكَ، اللّٰهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَأَبْغَضْتُهُمْ وَأَبْغَضُونِي، وَحَمَلُونِي عَلىٰ غَيْرِ خُلُقِي فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، وَمِثْ قُلُوبَهُمْ مَيْثَ الْمِلْحِ فِي الْماءِ»[1].

وقد استجاب الله دعاء وليّه المظلوم الممتحن فنقله إلى حظيرة القدس مع النبيّين والصدّيقين والشهداء وحسن أُولئك رفيقاً، وأنقذه وأراحه من ذلك المجتمع المصاب بدينه وأخلاقه، فأقصوه عن مقامه بعد وفاة أخيه رسول الله ﷺ، وجرّعوه أقسى ألوان المحن والخطوب، ووضعوا في أيّام حكمه الحواجز والسدود لئلّا تتبلور حوله الجماهير، وتؤمن بقيمه ومبادئه.

المأساة الخالدة

بقي الإمام الممتحن بعد حادثة صفّين والنهروان في أرباض الكوفة، قد طافت به الكوارث والخطوب، ومزّقت قلبه الأحداث الجسام، ينظر إلى الوثنيّة القرشيّة

---

(١) أنساب الأشراف: ١/٢٠٠.

قد انتصرت بقيادة معاوية بن أبي سفيان، العدوّ الأوّل للإسلام، وقد احتفّت به العصابات المجرمة أمثال ابن العاص، وابن شعبة، وابن جندب، وابن أبي أرطاة، وأمثالهم من اللصوص والذئاب، والإمام لا يتمكّن من حماية الإسلام، فقد مُني جيشه بالانقلاب على أعقابه، وخلد إلى التمرّد والتفكّك.

وأخذ الإمام المظلوم يلحّ بالدعاء على الله تعالى أن ينقذه من ذلك المجتمع، ويلحقه بأخيه وابن عمّه الرسول ﷺ ليرفع إليه آلامه وآهاته من العصابة القرشيّة التي جهدت على ظلمه والتنكيل به، وفعلاً فإنّ الله تعالى لم يرد طلبه، فرزقه الشهادة على يد أخبث مجرم، أشقى الأوّلين والآخرين، إنّه عبدالرحمن بن ملجم.

ونظرة خاطفة وسريعة إلى فصول هذه المأساة الخالدة في دنيا الأحزان:

مؤتمر مكّة

نزحت عصابة من الخوارج إلى مكّة لأداء الحجّ، فلمّا انتهى موسمه عقدوا مؤتمراً عرضوا فيه الأحداث الجسام التي مُني بها العالم الإسلامي، وأدّت إلى سفك الدماء، واختلاف كلمة المسلمين، ولم يفكّروا أنّهم هم المسؤولون عنها، فهم الذين جرّوا للأمّة المحن، وألقوها في شرّ عظيم، فقد أرغموا الإمام على قبول التحكيم، وأرغموه على انتخاب الخائن أبي موسى ممثّلاً لهم، مع علمهم بانحرافه وبغضه للإمام.

وعلى أي حال، فقد عزوا الفتن واختلاف المسلمين إلى ثلاثة أشخاص وهم:

١ ـ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

٢ ـ معاوية بن أبي سفيان.

٣ ـ عمرو بن العاص.

وأجمع رأيهم على اغتيال هؤلاء الأشخاص، وانبرى إلى تنفيذ عمليّة الاغتيال

الجماعة التالية أسماؤهم :

١ ـ عبدالرحمن بن ملجم ، تعهّد باغتيال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

٢ ـ الحجّاج بن عبدالله الصريمي ، تعهّد بقتل معاوية .

٣ ـ عمرو بن بكر التميمي ، تعهّد بقتل ابن العاص .

وعيّنوا لاغتيالهم ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ساعة خروجهم لأداء فريضة صلاة الصبح ، وبعد انفضاض المؤتمر أقاموا بمكّة أشهراً ، ثمّ اعتمروا في شهر رجب ، وقصد كلّ واحد منهم البلد الذي تعاهد للقيام بعمليّة الاغتيال فيه .

الإمام مع ابن ملجم

كان الإمام على يقين لا يخامره شكّ أنّ الذي يقوم باغتياله ابن ملجم المجرم الأثيم ، فقد أقبل ليبايع الإمام فردّه مرّتين أو ثلاثاً ، ثمّ بايعه بعد ذلك ، وقد أخذ منه العهود والمواثيق أن لا يغدر ، ولا ينكث بيعته ، فقال له ابن ملجم :

« ما رأيتك تفعل هذا بغيري ؟ » .

فأعرض عنه الإمام وقال لغزوان :

« إِحْمِلْهُ عَلَى الْأَشْقَرِ » .

فحمله عليه ، وتمثّل الإمام ببيت لعمرو بن معدي كرب :

« أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ »[1]

كان الإمام عليه السلام يخطب وكان ابن ملجم الخبيث الدنس قريباً من منصّة الخطابة ، فقال بصوت خافت :

« والله لأريحنّهم منك » .

---

(١) خزانة الأدب : ٣٦٠/٦ . الأغاني : ٢٢٨/١٥ .

وسمعه شخص فألقى عليه القبض وجاء به مخفوراً إلى الإمام وأخبره بمقالته، فأمر بإطلاق سراحه، وقال:

«لَمْ يَقْتُلْني بَعْدُ»[١].

وهكذا فتح الإمام أبواب الحريّة على نطاق واسع لأعدائه، فلذاكانوا لا يخشون عقابه.

ابن ملجم مع قطام

وحينما دخل ابن ملجم الرجس الخبيث الكوفة التقى ببعض أصحابه من تيم الرباب، وكانت عنده الفاجرة قطام، وكان الإمام قد قتل أباها وأخاها في واقعة النهروان، وكانت بارعة في الجمال، فلمّا رآها ابن ملجم فُتِنَ بها، فخطبها، فرضيت به وأجابته إلى ذلك، وشرطت عليه مهراً، وهو:

١ ـ ثلاثة آلاف درهم.

٢ ـ عبد وقينة.

٣ ـ قتل الإمام أمير المؤمنين، وفي هذا المهر المنحوس يقول الشاعر:

فَلَمْ أَرَ مَهْراً سَاقَهُ ذُو سَمَاحَةٍ ... كَمَهْرِ قَطامٍ مِنْ غَنِيٍّ وَمُعْدِمِ
ثَلَاثَةُ آلافٍ وَعَبْدٌ وَقَيْنَةٌ ... وَضَرْبُ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمَّمِ
فَلَا مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِيٍّ وَإِنْ غَلَا ... وَلَا فَتْكَ إِلَّا دُونَ فَتْكِ ابْنِ مُلْجِمِ
فَأُقْسِمُ بِالْبَيْتِ الحَرامِ وَمَنْ أَتَى ... إِلَيهِ جِهاراً مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ
لَقَدْ خابَ مَنْ يَسْعَى بِقَتْلِ إِمامِهِ ... وَوَيْلٌ لَهُ مِنْ حَرِّ نارِ جَهَنَّمِ[٢]

---

(١) علي بن أبي طالب بقيّة النبوّة وخاتم الخلافة: ٥٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦٧/٤٢.

وانبرى الخبيث قائلاً لها :

« لك ما سألت إلّا قتل عليّ بن أبي طالب ، فأنّى لي ذلك ؟ » ، وقد أراد أن لا يفهم أحد ما عزم عليه ، فقالت له الخبيثة :

« التمس غرّته ، فإن قتلته شفيت نفسي ، وهنّاك العيش معي ، وإن قُتلت فما عند الله خير لك » .

ولمّا أيقن الرجس بأنّها جادّة في كلامها راح يخبرها عن نيّته ، وما أقدم عليه قائلاً :

« ما أقدمني إلى هذا المصر إلّا قتل عليّ » .

وانبرت الفاجرة تقدّم له الدعم الكامل لتنفيذ الجريمة قائلة له :

« أنا طالبة لك من يساعدك » .

وبعثت إلى وردان بن مجالد من تيم الرباب ، فلمّا حضر أخبرته بما عزمت عليه مع ابن ملجم ، وطلبت منه أن يعينه على اقتراف الجريمة ، فأجابها إلى ذلك ، ومضى الخبيث ابن ملجم إلى شخص من الخوارج يقال له : شبيب بن بجرة ، فطلب منه مساندته قائلاً :

« هل لك من شرف الدنيا والآخرة ؟ » .

« ما ذاك ؟ » .

« تساعدني على قتل عليّ » .

فأجابه الخبيث إلى ذلك ، وسارا إلى قطام ، وكانت معتكفة بالجامع ، وقد ضربت عليها قبّة ، فقالا لها :

« قد اجتمعنا على قتل الرجل »[1] .

---

(١) إعلام الورى : ٢٠٠ .

فشكرتهما على ذلك، وشجّعتهما على ارتكاب الجريمة.

اغتيال الإمام

أطلّ على العالم الإسلامي شهر رمضان المبارك الذي أنزل الله تعالى فيه القرآن العظيم هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان، وكان وصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه على يقين بانتقاله إلى حظيرة القدس في بحر هذا الشهر المبارك، وقد أجهد نفسه في العبادة وأرهقها إرهاقاً شديداً، وكان فيما يقول المؤرّخون يفطر على خبز الشعير وجريش الملح، وكان لا يزيد في طعامه على ثلاث لقم، وأخذ يتضرّع إلى الله تعالى أن ينقله إلى جواره، ويريحه من الأزمات والخطوب التي أحاطت به، وحوّلت حياته إلى واحاتٍ من المحن والآلام.

ولمّا حلّت ليلة التاسع عشر من رمضان أحسّ الإمام بنزول الرزء القاصم، فكان برماً تساوره الهموم، وهو يقول بصوت حزين:

«مَا كَذَّبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ فِيهَا...».

وراودته في تلك الليلة ما قاساه من طغاة قريش، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب من الجهد الشاقّ، فقد التحم معهم في ميادين الحروب، وحصد رؤوس أعلامهم في سبيل الإسلام وحماية النبيّ العظيم.

ويقول الرواة أنّ السيّدة أُمّ كلثوم[1] قدّمت لأبيها عند الإفطار طبقاً فيه قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن وملح وجريش، فلمّا نظر إليه حرّك رأسه وبكى وقال:

«ما ظَنَنْتُ بِنْتاً تَسُوءُ أَباها كَما أَسأَتِ إِلَيَّ».

وفزعت السيّدة الطاهرة وقالت:

---

(١) السيّدة أُمّ كلثوم هي في أغلب الظنّ سيّدة النساء السيّدة المعظّمة زينب سلام الله عليها، وهذه كنيتها.

« ما ذاك ؟ ».

« تُقَدِّمِينَ إلىٰ أَبيكِ إدامَيْنِ فِي طَبَقٍ واحِدٍ ، أَتُرِيدِينَ أَنْ يَطُولَ وقُوفي بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعالىٰ يَوْمَ الْقِيامةِ ؟ أنا أُرِيدُ أَنْ أَتَّبِعَ أَخي وابْنَ عَمِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ ما قُدِّمَ لَهُ إِدامانِ فِي طَبَقٍ واحِدٍ إلىٰ أَنْ قَبَضَهُ اللهُ تعالىٰ.

يا بُنَيَّةُ ، ما مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طالَ وقُوفُهُ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيامةِ..

يا بُنَيَّةُ ، إِنَّ الدُّنْيا فِي حَلَالِها حِسابٌ ، وَفِي حَرامِها عِقابٌ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي حَبِيبِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ جَبْرَئِيلَ نَزَلَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ مَفاتِيحُ كُنوزِ الْأَرْضِ ، وَقالَ: يا مُحَمَّدُ ، السَّلَامُ يَقْرَؤُكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ صَيَّرْتُ مَعَكَ جِبالَ تِهامَةَ ذَهَباً وَفِضَّةً ، وَخُذْ مَفاتِيحَ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْقُصُ ذٰلِكَ مِنْ حَظِّكَ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

قالَ ﷺ : يا جَبْرَئِيلُ ، وَما يَكُونُ بَعْدَ ذٰلِكَ ؟

قالَ: الْمَوْتُ.

فقالَ: لَا حاجَةَ لِي فِي الدُّنْيا ، دَعْنِي أَجُوعُ يَوْماً ، وَأَشْبَعُ يَوْماً ، فَالْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ أَتَضَرَّعُ إلىٰ رَبِّي ، وَالْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ أَشْكُرُ رَبِّي وَأَحْمَدُهُ.

فَقالَ جَبْرَئِيلُ: وَفَّقْتَ لِكُلِّ خَيْرٍ يا مُحَمَّد !».

وأضاف الإمام قائلاً:

« يا بُنَيَّةُ ، الدّارُ دارُ غُرُورٍ ، وَدارُ هَوانٍ ، فَمَنْ قَدَّمَ شَيْئاً وَجَدَهُ. يا بُنَيَّةُ ،

لَا آكُلُ شَيْئاً حَتّىٰ تَرْفَعِي أَحَدَ الإِدامَيْنِ».

ورفعت السيّدة اللبن فتناول قرصاً ومعه الملح، كان هذا إفطار إمام الزاهدين والمتّقين والمنيبين إلى الله تعالى، وجعل الإمام يكثر الدخول إلى الدار والخروج منها، وهو قلق ينظر إلى السماء، ثمّ قرأ سورة يس، ونهض قائماً وهو يقول:

«اللّٰهُمَّ بارِكْ لَنا فِي لِقائِكَ».

وأخذ يكثر من قول: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»، ثمّ صلّى حتّى ذهب بعض الليل، ثمّ نامت عيناه، وانتبه مرعوباً، فجمع أولاده وقال لهم:

«فِي هٰذَا الشَّهْرِ تَفْقِدُونِي، إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيا هالَتْنِي...».

فقالوا له بذوب أرواحهم:

«يا أمير المؤمنين، ما رأيت؟».

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مَنامِي وَهُوَ يَقُولُ: يا أَبا الْحَسَنِ، إِنَّكَ قادِمٌ إِلَيْنا عَنْ قَرِيب، يَجِيءُ إِلَيْكَ أَشْقاها فَيَخْضِبُ شَيْبَتَكَ مِنْ أُمِّ رَأْسِكَ، وَأَنا مُشْتاقٌ إِلَيْكَ، وَإِنَّكَ عِنْدَنا فِي الْعَشْرِ الْأَواخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ...».

وضجّ أبناؤه في البكاء، فقد ذابت نفوسهم أسىً وحسرات، فأمرهم الإمام بالخلود إلى الصبر، وقام إلى صلاته، وبعد الفراغ منها كان يخرج ساعة بعد ساعة يقلّب طرفه في السماء وينظر إلى الكواكب وهو يقول:

«مَا كَذَّبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ، إِنَّها اللَّيْلَةُ الَّتِي وُعِدْتُ بِهَا».

ثمّ يعود إلى مصلّاه فيصلّي وهو يقول:

«اللّٰهُمَّ بارِكْ لِي فِي الْمَوْتِ».

فانبرت إليه أمّ كلثوم فزعة مرعوبة قائلة:

« يا أبتاه ، ما لي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد ؟ » .

فأجابها الإمام :

« يا بُنَيَّةُ ، إِنَّ أَباكِ قَتَلَ الأَبْطالَ ، وَخاضَ الأَهْوالَ ، وَما دَخَلَ الْخَوْفُ جَوْفَهُ ، وَما دَخَلَ فِي قَلْبِي رُعْبٌ أَكْثَرُ مِمّا دَخَلَهُ اللَّيْلَةَ ... » .

ثمّ قال :

« إِنّا لِلهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ » .

وفزعت أمّ كلثوم وراحت تخاطب أباها بذوب روحها قائلة بنبرات مشفوعة بالبكاء :

« ما لَكَ تَنْعىٰ نَفْسَكَ مُنْذُ اللَّيْلَةِ ؟ »

« يا بُنَيَّةُ ، قَدْ قَرُبَ الْأَجَلُ وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ ... » .

وأضاف الإمام قائلاً لها :

« يا بُنَيَّةُ ، إِنِّي لَمْ أَقُلْ ذٰلِكَ إِلَّا بِما عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ »(١) .

ثمّ أقبل الإمام على الدعاء والابتهال إلى الله تعالى ، وفي الهزيع الأخير من الليل الذي دام ظلامه على البؤساء والمحرومين قام الإمام فأسبغ الوضوء ، وتهيّأ للخروج إلى صلاة الصبح في بيت الله العظيم ، ولمّا بلغ صحن الدار كانت فيه وزٌّ أهديت إلى الإمام الحسن ريحانة رسول الله ﷺ ، فصحن في وجهه الشريف منذرات بالخطر العظيم الذي سيعصف بالشرق العربي وسائر الوطن الإسلامي ويحوّله إلى ركام ، وتنبّأ الإمام بنزول الرزء القاصم فقال :

---

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام : ٢٤٥/١١ .

«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ تَعالىٰ، صَوائِحُ تَتْبَعُها نَوائِحُ»[١].

إنّ تلك الصوائح التي انطلقت من الطيور أعقبتها نوائح الأيتام والأرامل والمساكين، فقد فقدوا من كان يرعاهم ويعطف عليهم، والتفت الإمام إلى أُمّ كلثوم فقال لها:

«يا بُنَيَّةُ، بِحَقِّي عَلَيْكِ إِلَّا ما أَطْلَقْتِها، فَقَدْ حَبَسْتِ ما لَيْسَ لَهُ لِسانٌ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَلَامِ إِذا جاعَ أَوْ عَطِشَ، فَأَطْعِمِيها وَاسْقِيها وَإِلَّا خَلِّي سَبِيلَها تَأْكُلُ مِنْ حَشائِشِ الْأَرْضِ»[٢]

قد أوصى الإمام بالحيوان الأعجم انطلاقاً من الإسلام الذي وعاه بقلبه وروحه، والذي وهبه الله تعالى رحمة للعالمين.

وأقبل الإمام على فتح الباب فعسر عليه فتحها؛ لأنها من جذوع النخل، فعالجها حتّى فتحها، فانحلّ مئزره فشدّه وهو يقول:

«اشْدُدْ حَيازِيمَكَ لِلْمَوتِ ... فَإِنَّ المَوتَ لاقِيكَا
ولا تَجْزَعْ مِنَ المَوتِ ... إذا حَلَّ بِوادِيكَا
كَما أَضْحَكَكَ الدَّهْرُ ... كَذاكَ الدَّهْرُ يُبْكِيكا
وَلا تَغْتَرَّ بِالدَّهْرِ ... إذا كانَ يُواتِيكا»

وسارع الإمام الحسن نحو أبيه وهو فزع حزين قائلاً:

«ما أَخْرَجَكَ فِي هٰذَا الْوَقْتِ؟».

«رُؤْيا رَأَيْتُها فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ هالَتْنِي».

---

(١) مروج الذهب: ٢/٢٩١.

(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ١١/٢٤٦.

«خَيْراً رَأَيْتَ، وَخَيْراً يَكُونُ، قُصَّها عَلَيَّ».

«رَأَيْتُ جَبْرَئِيلَ قَدْ نَزَلَ مِنَ السَّماءِ عَلىٰ جَبَلِ أَبـي قُبَيس، فَتَناوَلَ مِنْهُ حَجَرَيْنِ، وَمَضىٰ بِهِما إِلَى الْكَعْبَةِ، فَضَرَبَ أَحَدَهُما بِالْآخَرِ، فَصارا كَالرَّمِيمِ، فَما بَقِي بِمَكَّةَ وَلَا بِالْمَدِينَةِ بَيْتٌ إِلَّا دَخَلَهُ مِنْ ذٰلِكَ الرَّمادِ شَيْءٌ».

وراح الإمام الزكيّ قائلاً بفزع واضطراب:

«ما تَأْوِيلُ هـٰذِهِ الرُّؤْيا؟».

«إِنْ صَدَقَتْ رُؤْيايَ، فَإِنَّ أَباكَ مَقْتُولٌ، وَلَا يَبْقىٰ بِمَكَّةَ وَلَا بِالْمَدِينَةِ بَيْتٌ إِلَّا دَخَلَهُ الْحُزْنُ مِنْ أَجْلِي...».

«مَتىٰ يَكُونُ ذٰلِكَ؟».

«إِنَّ اللهَ تَعالىٰ يَقُولُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وَلـٰكِنْ عَهِدَ إِلَيَّ حَبِيبِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَكُونُ فِـي الْعَشْرِ الْأَواخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ، يَقْتُلُنِي عَبْدُالرَّحْمنِ بْنُ مُلْجِمٍ...».

وراح الإمام الزكي يقول لأبيه بلوعة وأسى:

«إِذا عَلِمْتَ ذٰلِكَ فاقْتُلْهُ...».

وأجابه إمام المتّقين وسيّد الموحّدين:

«لَا يَجُوزُ الْقِصاصُ قَبْلَ الْجِنايَةِ، وَالْجِنايَةُ لَمْ تَحْصَلْ مِنْهُ...».

وأراد الإمام الحسن مصاحبة أبيه إلى الجامع فأقسم عليه بالرجوع، ولم يسمح له

بالخروج معه ، ولم يجد الإمام الحسن بدّاً من إجابته ، فقفل راجعاً إلى منزله[١] ، وهو قلق ومضطرب .

ومضى الإمام إلى بيت الله ، فجعل يوقظ النّاس على عادته لعبادة الله الواحد القهّار ، فاجتاز على قوم ، فقبض على كريمته وقال :

« ظَنَنْتُ فِيْكُمْ أَشْقاها الَّذِي يُخَضِّبَ هٰذِهِ مِنْ هٰذِهِ »[٢] .

ثمّ شرع إمام المتّقين في صلاته ، وبينما هو ماثل بين يدي الله تعالى يناجيه بقلبه وعواطفه ، ولسانه مشغول بذكره ؛ إذ هوى عليه بسيفه شقيق عافر ناقة صالح عبدالرحمن بن ملجم ومعه شبيب بن بجرة الأشجعي الخارجي وهو يهتف بشعار الخونة المجرمين قائلاً :

« الْحُكْمُ لِلّٰهِ لَا لَكَ » .

وعلا الرجس الدنس بسيفه رأس بطل الإسلام ، وعلم المجاهدين والمنيبين ، فقدّ جبهته الشريفة التي طالما عفّرها بالسجود لله تعالى ، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه المقدّس الذي ما فكّر إلّا في سعادة البؤساء والمحرومين ، وجمع النّاس على صعيد العدل والحقّ ، ولمّا أحسّ الإمام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة الرضا والسرور بلقاء الله تعالى ؛ وعلا صوته يدوّي في رحاب المسجد .

« فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » .

لقد فزت فوزاً عظيماً ، وفازت قيمك ومبادؤك ، فأنت وحدك رهين الخلود في هذه الدنيا .

سيّدي يا أبا الحسن ، لقد كنت أوّل الفائزين والرابحين بمرضاة الله تعالى ،

---

(١) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام : ٦/٢٤٧ .

(٢) الكامل للمبرد : ٣/١٤٢ .

فقد رفعت كلمة الله تعالى ، وجاهدت في سبيله كأعظم ما يكون الجهاد ، فحطّمت الأصنام ، وطهّرت الأرض من أوثان الجاهليّة ، وبذلت روحك للدفاع عن رسول الله ﷺ ، فكنت الفدائي الأوّل في الإسلام في مبيتك على فراشه حينما أجمعت قريش على قتله ، ولولا جهادك وجهاد أبيك لما أبقى القرشيّون ظلاً للإسلام ، وقضوا عليه منذ بزوغ نوره .

سيّدي يا أبا الحسن ، لقد فزت وانتصرت قيمك ومبادؤك ، وخسر خصمك ابن هند ، فأنت وحدك حديث الدهر وإن لقّبوه بكسرى العرب ، قد قذف في مزبلة التاريخ تلاحقه أعماله التي حارب بها الله ورسوله ، وتورده حيث يستحقّ في الدار الآخرة .

وعلى أيّة حال ، فقد صُرع الإمام في محرابه وهو يلهج بذكر الله تعالى قد نزف دمه ، وانهارت قواه ، وحمل إلى داره ، والنّاس خلفه قد ضجّوا بالبكاء ، قد أخذتهم المائقة ، وهم يهتفون بذوب الروح قائلين بأسى :

« قُتل وصيّ رسول الله ﷺ » .

« قُتل إمام الحقّ والعدل » .

« قُتل أبو الضعفاء وأخو الغرباء » .

« قُتل أبو اليتامى والأرامل » .

واستقبلته مخدّرات الرسالة بالصراخ تتقدّمهنّ سيّدة النساء الحوراء زينب ، فأمرهنّ بالخلود إلى الصبر ، وكان من أشدّ أبنائه لوعة الإمام الحسن ، فالتفت إليه أبوه وقال له بلطف :

« يا بُنَيَّ ، لَا تَبْكِ فَإِنَّكَ تُقْتَلُ بِالسُّمِّ ، وَيُقْتَلُ أَخُوكَ بِالسَّيْفِ » .

وتحقّق ذلك ، فقد اغتال معاوية الإمام بالسمّ ، وقتل يزيد الإمام الحسين عليه السلام في صعيد كربلاء .

ابن ملجم يصف ضربته للإمام

وصف الشقي الخبيث ضربته الغادرة للإمام بقوله:

« قد أرهفت السيف، وطردت الخوف، وحثثت الأمل، وضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ قتلتهم »[١].

ولم يعلم الرجس أنّ ضربته شقّت جبهة رسول الله ﷺ؛ لأنّ الإمام نفسه، وأخوه وباب مدينة علمه.

إلقاء القبض على ابن ملجم

ألقى شخص القبض على المجرم ابن ملجم فجاء به إلى الإمام الحسن، فقال له:

« **يا مَلْعُونُ، قَتَلْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِمامَ الْمُسْلِمِينَ، هٰذا جَزاؤُهُ حِيْنَ آواكَ وَقَرَّبَكَ، حَتّى تُجازِيهِ بِهٰذا الْجَزاءِ...؟** ».

والتفت الإمام الحسن إلى أبيه قائلاً:

« **يا أَبَة، هٰذا عَدُوُّ اللهِ وَعَدُوُّكَ ابْنُ مُلْجِمٍ قَدْ أَمْكَنَنا اللهُ مِنْهُ** ».

وفتح الإمام عينيه وقال له بصوت خافت:

« **لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِدّاً وَأَمْراً عَظِيماً، أَلَمْ أَشْفِقْ عَلَيْكَ وَأُقَدِّمْكَ عَلىٰ غَيْرِكَ فِي الْعَطاءِ فَلِماذا تُجازِيني بِهٰذَا الْجَزاء؟** ».

والتفت الإمام إلى ولده فأوصاه بالبرّ إلى قاتله قائلاً:

« **أَطْعِمُوهُ، وَاسْقُوهُ، فَإِنْ عِشْتُ فَأَنا وَلِيُّ دَمِي، إِنْ شِئْتُ قَتَلْتُ، وَإِنْ شِئْتُ**

---

(١) الأمالي / أبو عليّ القالي: ٢/٢٥٥.

عَفَوْتَ، وَإِنْ مِتُّ فَاقْتُلُوهُ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

ويهر الإمام الحسن من وصيّة أبيه بالبر إلى قاتله قائلاً:

«يا أَبَتَاهُ، قَتَلَكَ هٰذَا اللَّعِينُ، وَفُجِعْنا بِكَ، وَأَنْتَ تَأْمُرُنا بِالرِّفْقِ بِهِ».

فأجابه الإمام بما انطوت عليه روحه الملائكيّة قائلاً:

«يا بُنَيَّ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، أَطْعِمْهُ مِمّا تَأْكُلُ، وَاسْقِهِ مِمّا تَشْرَبُ، فَإِنْ أَنا مِتُّ فَاقْتَصَّ مِنْهُ بِأَنْ تَقْتُلَهُ، وَلَا تُمَثِّلْ بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِيّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ، وَإِنْ أَنا عِشْتُ فَأَنا أَعْلَمُ ما أَفْعَلُ بِهِ فَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَزْدادُ عَلَى الْمُذْنِبِ إِلَيْنا إِلَّا عَفْواً وَكَرَماً».

وهكذا كان الإمام مثلاً أعلى للرأفة والرحمة ونكران الذات.

بعض وصاياه

«أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ، وَأَلَّا تَبْغِيا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا[1]، وَلَا تَأْسَفَا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالْحَقِّ، وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ [لِلْآخِرَةِ]، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وُلْدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

---

(١) تبغيا: أي تطلبا.

ـ يَقُولُ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ.

اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ! فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ[١]، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ.

وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ! فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ؛ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ.

وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ! لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ.

وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ! فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ.

وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا[٢].

وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ!

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ[٣]، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي.

انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ

---

(١) المراد: صلوا الأيتام باتصال.

(٢) لم تناظروا: أي لا ينظر إليكم.

(٣) التباذل: العطاء.

وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[١].

حكت هذه الوصيّة روحانيّة الأنبياء، وقداسة الأوصياء، فقد أوصى أولاده بكلّ فضيلة، وبكلّ ما يقرّبهم إلى الله تعالى زلفى.

وهناك وصايا أُخرى للإمام مماثلة لهذه الوصيّة ذكرناها في موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

إلى جنّة المأوى

في ليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان تزايد ولوج السمّ في بدن الإمام، وتزايدت آلامه، قال محمّد بن الحنفيّة:

«نظرنا إلى قدميه وقد احمرّتا، فكبر ذلك علينا وأيسنا منه، وعرضنا عليه المأكول والمشروب، فأبى، ونظرنا إلى شفتيه وهما يختلجان بذكر الله تعالى، وجعل جبينه يرشح عرقاً، فقلت له:

ما لي أراك يرشح جبينك عرقاً؟ فقال عليه السلام:

«يا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذا نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ عَرَقَ جَبِينُهُ وَسَكَنَ أَنِينُهُ».

ولمّا أحسّ إمام الموحّدين والمتّقين بدنوّ أجله المحتوم أمر بجمع أولاده ليودّعهم الوداع الأخير، فلمّا مثلوا عنده قال لهم بصوت خافت:

«اللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكُم، اسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ».

وتعالت أصوات أولاده بالبكاء، والتفت إليه ولده الزكي الإمام الحسن فقال له:

---

(١) نهج البلاغة: ٣/٧٧.

«ما الَّذي دَعاكَ إلىٰ هذا ؟».

«يا بُنَيَّ، رَأَيْتُ جَدَّكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مَنامِي قَبْلَ هٰذِهِ الْكارِثَةِ بِلَيْلَةٍ، فَشَكَوْتُ إِلَيْهِ ما أَنا فِيهِ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْأَذىٰ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ.

فَقالَ لِي: ادْعُ عَلَيْهِمْ.

فَقُلْتُ: اللّٰهُمَّ أَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، وَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ...

فَقالَ لِي: قَدِ اسْتَجابَ اللهُ دُعاءَكَ، وَسَيَنْقُلُكَ إِلَيْنا بَعْدَ ثَلاثٍ، وَقَدِ انْقَضَتِ الثَّلاثُ. يا أَبا مُحَمَّد، أُوْصِيكَ بِأَبِي عَبْدِاللهِ -يعني الإمام الحسين- خَيْراً، فَأَنْتُما مِنِّي، وَأَنا مِنْكُما».

ثمّ التفت إلى بقيّة أولاده، وأمرهم بإطاعة الحسن والحسين سيّدي شباب أهل الجنّة، ثمّ قال لهم:

«أَحْسَنَ اللهُ لَكُمُ الْعَزاءَ أَلا وَإِنِّي مُنْصَرِفٌ عَنْكُمْ فِي لَيْلَتِي هٰذِهِ، وَلاحِقٌ بِحَبِيبِي مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا وَعَدَنِي».

ثمّ أُغمي عليه ساعة، فلمّا أفاق قال لولده:

«هٰذا رَسُولُ اللهِ وَعَمِّي حَمْزَةُ، وَأَخِي جَعْفَرٌ، وَأَصْحابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ: عَجِّلْ قُدومَكَ عَلَيْنا فَإِنّا إِلَيْكَ مُشْتاقُونَ...».

ثمّ قال لهم برفق ولطف:

«أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ جَمِيعاً، اللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكُمْ وَكَفىٰ بِاللهِ خَلِيفَةً».

ثمّ سلّم على ملائكة الله تعالى المحيطين به، وأخذ يقرأ آيات من الذكر الحكيم،

وكان آخر ما تلاه من آيات الله تعالى:

﴿ لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾[١] و﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ ﴾[٢].

ثمّ فاضت روحه العظيمة إلى جنّة المأوى تحفّها أنبياء الله تعالى وملائكته العظام.

لقد سمت روحه العظيمة إلى الملكوت الأعلى لترفع إلى الله تعالى ما عاناه من جبابرة عصره من الظلم والاضطهاد.

لقد ارتفع ذلك اللطف الإلهي من الأرض الذي أضاء سماء الدنيا بعدله وسموّ ذاته.

لقد مادت أركان العدالة، وانطمست معالم الدين، فقد انطوت أروع شخصيّة خلقها الله تعالى في الأرض بعد الرسول الأعظم ﷺ، لقد مضى الإمام إلى الفردوس الأعلى وهو مجهود مكدود قد تظافرت القوى القرشيّة على هضمه وسلب حقوقه ونكران فضائله، فناجزوه الحرب، وأفسدوا عليه جيشه، وتركوه في أرباض الكوفة يصعّد آهاته وآلامه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

تجهيزه ودفنه

قام الإمام الحسن عليه السلام وهو حزين يذرف أحرّ الدموع على أبيه، فغسل جسده الطاهر، وأدرجه في أكفانه، ولمّا حلّ الهزيع الأخير من الليل انبرى مع كوكبة من إخوانه وخلّص أصحابه فحملوا الجسد الطاهر وواروه في مقرّه الأخير في النجف الأشرف، وقد واروا معه العلم والإيمان ونكران الذات والجهاد، وببركته أصبحت

---

(١) الصافّات ٣٧: ٦١.

(٢) النحل ١٦: ١٢٨.

النجف الأشرف أعظم جامعة دينيّة في العالم الإسلامي ، قد تخرّج منها آلاف الفقهاء والعلماء .

تأبين الإمام الحسن لأبيه

ولمّا وارى الإمام الحسن عليه السلام جثمان أبيه المقدّس أقبل إلى الجامع الأعظم ، وقد احتفّ به إخوانه والبقيّة الصالحة من المهاجرين والأنصار فاعتلى أعواد المنبر وابتدأ بحمد الله تعالى والثناء عليه وقال :

« لَقَدْ قُبِضَ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ لَمْ يَسْبِقْهُ الْأَوَّلُونَ بِعَمَلٍ وَلَمْ يُدْرِكْهُ الْآخَرُونَ بِعَمَلٍ ، لَقَدْ كانَ يُجاهِدُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَيَقِيهِ بِنَفْسِهِ وَكانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يُوَجِّهُهُ بِرايَتِهِ فَيَكْتَنِفُهُ جَبْرَئِيلُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَمِيكائِيلُ عَنْ شِمالِهِ ، لَا يَرْجِعُ حَتّىٰ يَفْتَحَ اللهُ عَلىٰ يَدَيْهِ .

لَقَدْ تُوفِّيَ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ الَّتِي عَرَجَ فِيها عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ ، وَقُبِضَ فِيْها يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وَصِيُّ مُوسىٰ عليه السلام ، وَما خَلَّفَ صَفْراءَ وَلَا بَيْضاءَ إِلَّا سَبْعُمائَةَ دِرْهَمٍ فَضُلَتْ مِنْ عَطَائِهِ أَرادَ أَنْ يَبْتَاعَ بِها خادِماً لِأَهْلِهِ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَرُدَّها إِلىٰ بَيْتِ الْمالِ »[1] .

وهذه الكلمات من أروع ما أبّن به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد مثّلت بلاغة الكلام وروعة الإيجاز ، فحكت أنّ الإمام لم يسبقه الأوّلون من العظماء بأعماله الصالحة ، ولا يدركه الآخرون كذلك ، ومن كان بهذه الصفة فهو سيّد ولد بني آدم في جميع مراحل تاريخهم ، وكذلك حكت هذه الكلمات زهد الإمام الراحل ، فإنّه

---

(١) أنساب الأشراف : ٤٩٩/٢ .

لم يترك من حطام الدنيا صفراء ولا بيضاء ولا داراً ولا عقاراً ، وتحرّج كأشدّ ما يكون التحرّج في أموال الدولة ، فلم يصطف أي شيء منها لنفسه ولأبنائه ، فقد ردّ الدريهمات التي فضلت من عطائه إلى بيت المال ، وهو بذلك أزهد حاكم في تاريخ البشريّة ، وبهذا ينتهي بنا الحديث عمّا عاناه إمام المتّقين من المآسي والخطوب في حياته ، ولنعرض إلى صور أُخرى من مآسيه التي عاناها بعد وفاته .

ملاحقة الإمام بعد وفاته

لاحق معاوية كسرى العرب، وعميد قريش، وشيخ الأمويين، الإمام أمير المؤمنين بعد وفاته بجميع ألوان الاعتداء وصنوف التنكيل لم يمنعه عنها وفاة الإمام الذي هو نفس رسول الله ﷺ، فقد أُترعت نفس الطاغية بالحقد والبغض لهذا الإمام العظيم معجزة الإسلام، وسيّد المتّقين والمنيبين إلى الله تعالى، وهذه صور من عدائه للإمام.

١ ـ سبّه على المنابر

واندفع الفاجر الباغي معاوية إلى النيل من الإمام والحطّ من شأنه، وقد سخّر جميع أجهزة الدولة إلى انتقاص الإمام، وإعلان سبّه على المنابر في خطب الجمعة والأعياد، ومعاهد التعليم، وجعل ذلك سنّة من سنن الإسلام يأثم المسلمون على تركها، ويعاقب الولاة على عدم أدائها.

ويقول الرواة: «إنّ معاوية لمّا قفل راجعاً إلى الشام بعد الصلح خطب النّاس وقال لهم: أيّها النّاس، إنّ رسول الله ﷺ قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدّسة ـ يعني الشام ـ فإنّ فيها الأبدال[1]، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب».

فأخذ النّاس في لعنه وانتقاصه، واتّخذ ذلك سنّة جارية، وكان يختم خطابه بهذه الكلمات:

---

(١) الأبدال: هم ابن العاص، وابن شعبة، وسمرة بن جندب، وأمثالهم من لصوص العرب وخونة الأمّة.

« اللّهمّ إنّ أبا تراب ألحد في دينك ، وصدّ عن سبيلك ، فالعنه لعناً وبلاص ، وعذّبه عذاباً أليماً »[١].

وكانت هذه الكلمات تتلى على منابر المسلمين التي شيّدها الإمام بسيفه ، وبناها بجهاده .

وقد انبرى الخطباء في كلّ كورة ، وعلى كلّ منبر يلعنون الإمام ويبرأون منه[٢] ، وقد سار عمّاله على هذه السنّة الأمويّة ، ومن أبى عزله عن عمله ، فقد عزل سعيد بن العاص عن إمارة المدينة لأنّه امتنع عن سبّ الإمام ، وجعل مكانه الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم ، وكان هذا الخبيث يبالغ في سبّ الإمام وانتقاصه ، حتّى امتنع الإمام الحسن من الحضور في الجامع النبوي[٣].

وكان المنافق المغيرة بن شعبة يبالغ في سبّ الإمام حتّى لم يحص أحد كثرة سبّه له[٤] ، وكان زياد ابن أبيه يحرّض النّاس على ذلك ، ومن أبى عرضه على السيف[٥].

وقد بالغ وعّاظ السلاطين وسائر ولاة معاوية في سبّ الإمام حتّى جعلوا سبّه جزء من صلاة الجمعة ، وبلغ بهم الحال أنّهم إذا نسوا اللعن قضوه ، وبنوا مسجداً للّعن سمّوه مسجد الذكر[٦].

وخطب هشام بن عبدالملك بعرفة فلم يشتم الإمام ، فأنكر عليه عبدالملك بن الوليد قائلاً له :

---

(١) حياة الإمام الحسن : ٣٤١/٢.

(٢) شرح ابن أبي الحديد : ١٥/٣.

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٣٤٢/٢.

(٤) شرح ابن أبي الحديد : ٦٩/٤.

(٥) المسعودي على هامش ابن الأثير : ٢٩/٦.

(٦) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٣٤٢/٢.

« يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تراب ».

فقال له هشام : « ليس لهذا جئنا »[١].

ولمّا ولي الخبيث عبدالملك بن مروان جعل سبّ الإمام من أهمّ أعماله ، وعمّم ذلك على جميع المدن الإسلاميّة ، كما رمى الإمام بالفجور في مجلسه[٢].

وكان خالد بن عبدالله القسري[٣] ، وهو من ولاة الأمويّين على مكّة والعراق ، يجاهر في سبّ الإمام والحسن والحسين عليهما السلام ، وكان يقول على المنبر :

« اللّهمّ العن عليّ بن أبي طالب بن عبدالمطّلب بن هاشم صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ».

ثمّ يلتفت إلى النّاس ويقول لهم :

« هل كنبت »[٤].

وذكر الحافظ السيوطي أنّه كان في أيّام بني أميّة أكثر من سبعين ألف منبر يُلعن عليها الإمام أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول أحمد حنفظي الشافعي :

وقَد حَكَى الشَّيخُ السَّيوطيُّ أنّهُ قَـدْ كـانَ فيما يَجْعَلوهُ سُنَّه

---

(١) شرح ابن أبي الحديد : ٤٧٦/٢.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٣٤٢/٢.

(٣) خالد بن عبدالله القسري أمير العراقين من قبل هشام بن عبدالملك ، كانت أمّه نصرانيّة ، بنى لها كنيسة تتعبّد بها ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

ألا قَبَّحَ الرَّحمنُ ظَهرَ مَطيَّةٍ أَتَتْنا تُهادي مِنْ دِمَشْقٍ بِخالِدِ
وَكَيفَ يَؤُمُّ النّاسَ مَنْ كانَتْ أُمُّهُ تَدينُ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِواحِدِ

أكره امرأة مسلمة على الزنا ، فعزله هشام عن منصبه ، وقتل في أيّام الوليد. وفيات الأعيان : ١٥٢/٥.

(٤) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٣٤٣/٢.

سَـــبعون ألفَ مِـنْبرٍ وَعَشَـرَة ... مِـنْ فَـوقِهنَّ يَـلعَنونَ حَـيدَرَه
وهــذِهِ فــي جَـنبِها العَـظائِمُ ... تَـصغرُ بَـلْ تُـوجَهُ اللُّـوائِـمُ[١]

ولمّا رأى الغوغاء أنّ التقرّب للسلطة بسبّ الإمام وانتقاصه جهدوا بذلك للتقرّب إليها ، ومن أمثلة ذلك أنّ بعض الأوغاد أقبل نحو الحجّاج رافعاً عقيرته قائلاً :

« أيّها الأمير ، إنّ أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً ، وإنّي فقير بائس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج » .

لقد عرف مفتاح السلطة هو انتقاص الإمام والنيل منه ، فقد أنس منه الحجّاج وتضاحك ، وقال له :

« للطف ما توصّلت به ، فقد ولّيتك موضع كذا »[٢] .

لقد شاع سبّ الإمام في جميع الأقطار الإسلاميّة سوى سجستان ، فإنّه لم يلعن على منابرها إلّا مرّة واحدة ، ولمّا أصرّ الأمويّون على ذلك امتنعوا من إجابتهم ، فاضطرّ الأمويّون إلى مجاراتهم[٣] ، وقد حاز أهل سجستان الفخر والشرف بهذه الفضيلة .

ومن طريف ما ينقل أنّ شخصاً جاء إلى أحد الولاة باكياً ، فقال له :

« ما الذي أصابك ؟ .

قال : مصيبة .

فقال له : وأي مصيبة فجعت بها ؟

قال : إنّي صلّيت ونسيت سبّ أبي تراب في الصلاة .

---

(١) النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية : ٧٩ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد : ١/٣٥٦ .

(٣) معجم البلدان : ٣/١٩١ .

فقال له : اقض وأعد صلاتك ولا تنس ».

وعلى أي حال ، فقد ظلّ الأمويّون مصرّين على سبّ الإمام باذلين قصارى جهودهم في نشر ذلك حتّى يتربّى عليه الصغير ، ويصبح عادة لا مجال للتخلّي عنها ، واستمرّ ذلك حتّى جاء دور عمر بن عبدالعزيز ، فمنع السبّ ، وكتب بإلغائه إلى جميع عمّاله وولاته ، وأمر أن يجعل بدل اللعن في خطب الجمعة والأعياد قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[١].

وقيل : جعل مكان تلك الآية قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

وقيل : جعلهما معاً[٣] ، وقد سجّل له بذلك مكرمة تذكر له بمزيد من الإجلال والتكريم مدى الأحقاب والآباد ، وقد أثنى عليه السيّد الشريف ، وشكر له هذه اليد البيضاء التي أسداها إلى المسلمين لا على السادة زادهم الله شرفاً فحسب ، فقال في أبياته الرائعة :

يَابْنَ عَبْدِالعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ العَـ ـيْنُ فَتىً مِنْ اُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُك
غَيرَ أنّي أقُولُ: إنَّكَ قَدْ طِبْـ ـتَ وَإنْ لَمْ يَطِبْ وَلَمْ يَزْكُ بَيْتُك

---

(١) الحشر ٥٩ : ١٠.

(٢) النحل ١٦ : ٩٠.

(٣) الغدير : ١٠/٢٦٦.

أنتَ نـــزّهتَنا عَـــنِ السّبِّ والقَـــذْ ... فِ فَـــلَو أمْكَـــنَ الجَـزاءَ جَـزَيْتُك
وَلَـــو انّـــي رأيتُ قـــبرَكَ لاسْتَحيَيْـ ... ـتُ مِـــنْ أنْ أرىٰ وَمـــا حَـــيّيْتُك
وقَـــليلٌ لَـــوْ أنْ بـــذلتُ دِمـــاءَ الـ ... ـبدنِ ضَرباً عَـلَى الأرضِ وَسَـقَيْتُك
دَيْـــر سَـــمْعانَ فـــيكَ آوىٰ أبـو حَـفْـ ... ـــصٍ فَبِوُدّي لَـو أنّـني آوَيْـتُك
ديـــرُ سَـــمْعانَ لا أغِـــبَّكَ غَـــيثٌ ... خَيرُ بَيتٍ مِـنْ آلِ مَـروانَ بَيْتُك[١]

منكرون وناقمون

وأنكر جماعة من خيار المسلمين استهتار معاوية بسبّه للإمام أمير المؤمنين لأنّه نفس النبيّ ﷺ، وأبو سبطيه، وصاحب البلاء الحسن في الإسلام، ولأنّ سب المسلم من أفحش المحرّمات والموبقات، فقد أثر عن النبيّ ﷺ:

«إِنَّ سَبَّ الْمُسْلِمِ فُسوقٌ»[٢].

و«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لا يَكونُ لَعّاناً»[٣].

ولم يحفل معاوية بذلك، فقد كان جاهليّاً، ومتمرّساً في الموبقات والآثام.

وعلى أي حال، فإنّا نعرض المنكرين والناقمين على معاوية رمن بينهم:

السيّدة أُمّ سلمة

أنكرت أمّ المؤمنين أمّ سلمة سبّ معاوية للإمام سرّاً وعلانية، ورفعت إليه مذكّرة جاء فيها:

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: ١/٣٥٧.

(٢) الترغيب والترهيب: ٣/٣٩٤. فيض القدير: ٤/٨٤.

(٣) صحيح الترمذي.

« إنّكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنّكم تلعنون عليّ بن أبي طالب ، ومن أحبّه ، وأنا أشهد أنّ الله أحبّه ورسوله »[١].

الأحنف بن قيس

كان الأحنف بن قيس الزعيم العراقي في مجلس معاوية ، فقام الخطيب وافتتح خطابه بسبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وثقل ذلك على الأحنف ، فانبرى مخاطباً معاوية قائلاً له :

« إنّ هذا القائل لو يعلم أنّ رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتّق الله يا معاوية ، ودع عنك عليّاً فقد لقي ربّه ، وأفرد بقبره ، وخلّي بعمله ، كان والله مبروراً في سبقه ـ أي إلى الإسلام ـ طاهر الثوب ، ميمون النقيبة ، عظيم المصيبة ».

وتميّز معاوية غيظاً وغضباً ، وانتفخ سحره ، وورم أنفه ، فقال للأحنف :

« لقد أغضيت العين على القذى ، وقلت ما ترى ، أما والله لتصعدنّ المنبر وتلعن عليّاً كرهاً أو طوعاً ».

وسارع الأحنف قائلاً :

« إن تعفني فهو خير لك ، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبداً ».

فصاح به معاوية :

« قم فاصعد المنبر ».

« أما والله لأنصفنّك في القول والفعل ».

وانبرى معاوية قائلاً :

« ما أنت قائل إن أنصفتني ؟ ».

---

(١) العقد الفريد : ٢/٢١٧.

قال الأحنف:

«اصعد المنبر فاحمد الله تعالى واثني عليه، وأصلّي على نبيّه محمّد ﷺ، ثمّ أقول:

«أيّها النّاس، إنّ معاوية أمرني أن ألعن عليّاً، وأنّ عليّاً ومعاوية اختلفا واقتتلا، وادّعى كلّ واحد منهما أنّه بغى عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمّنوا رحمكم الله، ثمّ أقول:

اللّهمّ العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهمّ العنهم لعناً كثيراً، أمّنوا رحمكم الله، يا معاوية، لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً».

فراوغ معاوية على عادته، وقال: «إذاً نعفيك يا أبا بحر»[1].

سعد بن أبي وقّاص

كان سعد منحرفاً عن الإمام، فقد وقف في نظام الشورى إلى جانب عثمان، ولمّا بويع الإمام بالخلافة لم يبايعه إلّا أنّه سمع معاوية يسبّ الإمام في دار النّدوة، فغضب سعد وقال له:

«يا معاوية، اجلستني على سريرك، ثمّ شرعت في سبّ عليّ، والله لأن يكون فيّ خصلة واحدة من خصال كانت لعليّ أحبّ إليّ من أن يكون ممّا طلعت عليه الشمس»، وأخذ يذكر الخصال.

والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال له يوم خيبر: **لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسولُهُ، وَيُحِبُّ اللهَ وَرَسولَهُ، لَيْسَ بِفَرّارٍ، يَفْتَحُ اللهُ عَلىٰ يَدِهِ**

---

(١) العقد الفريد: ٢/١٤٤. المستطرف: ١/٥٤. ثمرات الأوراق: ٥٩.

أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس ، والله لئن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قال له في غزوة تبوك : **أَلَا تَرْضىٰ أَنْ تَكونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارونَ مِنْ موسىٰ ، إِلَّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدي** أحبّ إليّ من أن يكون ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله ما دخلت لك داراً ما بقيت .

فأجابه معاوية من دبره لا من فمه[1] ، ثمّ نهض سعد مغضباً .

عبدالله بن عبّاس

اجتاز عبدالله بن عبّاس على قوم ينالون من الإمام أمير المؤمنين ، فقال لقائده :

« أدنني منهم » ، فأدناه ، فانبرى إليهم قائلاً :

« أيّكم السابّ الله ؟ » .

« سبحان الله ! مَن يَسُبّ الله فقد أشرك بالله » .

« أيّكم السابّ رسول الله ﷺ ؟ » .

« نعوذ بالله أن نسبّ رسول الله ﷺ » .

« أيّكم الساب عليّ بن أبي طالب ؟ » .

« أمّا هذه فنعم » .

« أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : **مَنْ سَبَّني فَقَدْ سَبَّ اللهَ تَعالىٰ ، وَمَنْ سَبَّ عَلِيَّ بنَ أَبي طالِبٍ فَقَدْ سَبَّني** » .

فأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض خجلاً لا يطبقون جواباً ، ثمّ تركهم وانصرف ، فقال لقائده :

---

(١) مروج الذهب : ٢/٢١٧ .

«كيف رأيتهم ؟».

فأجابه وهو جذلان بمقالة ابن عبّاس معهم قائلاً:

«نظروا إليك بأعين مُحْمرَّةٍ نظر التُّيوس إلى شفار الجازِرِ».

وابتهج ابن عبّاس فقال له:

«زدني فداك أبي وأمّي».

«ما عندي مزيد ولكن عندي:

أَحياؤُهُمْ خِزْيٌ عَلىٰ أمواتِهِمْ والمَيِّتونَ فَضيحةٌ لِلغابِرِ[1]

ابن عبّاس ومعاوية

جرت محاورة بين ابن عبّاس ومعاوية وهي تكشف عمّا يكنّه هذا الذئب الجاهلي من العداء العارم للإمام، وسعيه لإخفاء مآثره وفضائله، وحجبها عن النّاس، فقد اجتاز معاوية على جماعة من قريش فقاموا إليه إلّا ابن عبّاس فبادره معاوية قائلاً:

«يابن عبّاس، ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلّا لموجدة علَيَّ بقتالي إيّاكم يوم صفّين. يابن عبّاس، إنّ ابن عمّي عثمان قُتل مظلوماً».

فأجابه ابن عبّاس بمنطقه الفيّاض قائلاً:

«فعمر بن الخطّاب قتل مظلوماً فسلّم الأمر إلى ولده، وهذا ولده».

وأشار إلى عبدالله بن عمر.

«إنّ عمر قتله مشرك».

---

(١) مروج الذهب: ٢/٢٩٩. الرياض النضرة: ٢/١٦٦. أمالي الصدوق: ١٥٧، الحديث ١٥١.

« من قتل عثمان ».

« المسلمون ».

« ذلك أدحض لحجّتك ، إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلّا بحقّ ».

ولذع معاوية حديث ابن عبّاس فراح يقول له :

« إنّا كتبنا إلى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته ، فكفّ لسانك يابن عبّاس ».

« تنهانا عن قراءة القرآن ؟ ».

« لا ».

« تنهانا عن تأويله ؟ ».

« نعم ».

« نقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به ؟ ».

« نعم ».

« فأيّهما أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟ ».

« العمل به ».

« كيف نعمل به حتّى نعلم ما عنى الله تعالى بما أنزل علينا ؟ ».

« سل عن ذلك من يتأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك ».

« إنّما أنزل القرآن على أهل بيتي ، فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط ؟ ».

« اقرأوا القرآن ولا تروا شيئاً ممّا أنزل الله تعالى فيكم ، وممّا قال رسول الله ﷺ وارووا ما سوى ذلك ».

قال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[1].

---

(١) التوبة ٩: ٣٢.

وصاح معاوية:

« يابن عبّاس، اكفني نفسك، وكفّ عنّي لسانك، وإن كنت فاعلاً فليكن سرّاً، ولا تسمعه أحداً علانية »[١].

كشفت هذه المحاورة ما يكنّه الطاغية من الحقد والعداء للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وللعترة الطاهرة، ومحاولته ستر فضائلهم وإخفاء مآثرهم على المسلمين.

زيد بن أرقم

نقم الصحابي زيد بن أرقم على المغيرة بن شعبة الذي أعلن سبّ الامام أمير المؤمنين بإيعاز من سيّده معاوية، وإرضاءً للعواطف الأمويّة، فقد قال له:

« يا مغيرة، ألم تعلمِ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن سبّ الأموات، فلِمَ تسبّ عليّاً وقد مات؟ »[٢].

أبو بكرة

خطب الإرهابي المجرم بسر بن أبي أرطاة فشتم أمير المؤمنين وقال للنّاس:

« ناشدت الله رجلاً علم أنّي صادق إلّا صدّقني، أو كاذب إلّا كذّبني ».

فقال له أبو بكرة:

« اللّهمّ لا نعلمك إلّا كاذباً ».

فطاش عقل بسر، وأمر بخنقه، فخنق ثمّ أنقذوه منه »[٣].

---

(١) شرح النهج: ١٥/٣. حياة الإمام الحسن عليه السلام: ٣٤٩/٢ ـ ٣٥١.

(٢) الأغاني: ٢/٦. شرح النهج: ٣٦٠/١.

(٣) الطبري: ٩٦/٦.

أنيس الأنصاري

ولمّا أعلن معاوية سبّ الإمام اندفع أنيس الأنصاري إلى الإنكار عليه، فقال في خطاب له:

«إنكم قد أكثرتم اليوم في سبّ هذا الرجل - يعني علياً - وشتمه، وإنّي أُقسم بالله إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إِنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ القِيامَةِ لِأَكْثَرِ مِمّا عَلَى الأَرْضِ مِنْ مَدَرٍ وَشَجَرٍ**.

وأُقسم بالله ما أحد أوصل لرحمه منه، أفترون شفاعته تصل إليكم، وتحجز عن أهل بيته»[1].

عبيدالله بن كثير السمعي

عبيدالله من الناقمين على السياسة الأمويّة التي تبنّت سبّ الإمام عليه السلام، وقد نظم شعره بهذه الأبيات الرقيقة:

لعَنَ اللهُ مَنْ يَسبُّ عَلِيّاً ... وَحُسَيْناً مِنْ سوقَةٍ وإمامِ
أيَسَبُّ المُطَهَّرونَ جُدوداً ... وَالكِرامُ الأخْوالِ والأعْمامِ
يَأمَنُ الطَّيرُ والحَمامُ ولا يَأْ ... مَنُ آلُ الرَّسولِ عِندَ المَقامِ
طِبْتَ بَيْتاً وطابَ أهْلُكَ أهلاً ... أهْلُ بَيْتِ النَّبيِّ والإسْلامِ
رَحْمَةُ اللهِ والسَّلامُ عَلَيهِمْ ... كُلَّما قامَ قائِمٌ بِسَلامِ[2]

لقد حاول الطاغية أن يمحو اسم الإمام، ويطفئ نوره، ولكنّه باء بالفشل والخسران، فهاهو الإمام قد عجّت الدنيا بذكره. يقول السماوي:

---

(١) الإصابة: ٨٩/١. أُسد الغابة: ٢٤/١.

(٢) شرح النهج: ٢٥٦/١٥.

وهــذا عَــلِيٌّ والأهـازيجُ بـاسمِهِ تَشُقُّ الفَضا النـائي فَـهاتوا مُـعاوِيا
أَعيدوا ابـنَ هِنْدٍ إنْ وجَـدتُمْ رُفـاتَهُ رُفـاتاً وإلّا فـانشُروها مَـخازِيا[1]

وقف الشاعر الكبير محمّد مجذوب على قبر معاوية فرآه مهاناً، قد عربد به الذباب، واحتضنته الكلاب، فقال:

هذا ضَريحُكَ لَـو بَـصرْتَ بِبُؤسِهِ لأَسالَ مَـدمَعَكَ المَـصيرُ الأَسْـوَدُ
كُـتَلٌ مِـنَ التُّـربِ المُـهينِ بِـخَربَةٍ سَكَـرَ الذُّبـابُ بِـها فَـراحَ يُـعَرْبِدُ
خَـفِيَتْ مَـعالِمُها عَـلىٰ زُوّارِهـا فَكَـأَنَّها فـي مَـجْهَلٍ لا يُـقْصَدُ
وَمَشىٰ بِها رَكْبُ البِـلا فَـجِدارُهـا عــارٍ فـيهِ شَـيْءٍ بِـها يَـسُدُّ
تَهمي السَّحائِبُ مِنْ خِلالِ شُقوقِها والرّيـحُ فـي جَـنَباتِها تَـتَرَدَّدُ
حَـتّى المُـصَلّىٰ مُـظْلِمٌ فَكَـأَنَّهُ مُـذْ كـانَ لَـمْ يَجْتَزْ بِـهِ مُـتَعَبِّدُ

لقد مشى موكب الزمن وإذا بالإمام أمير المؤمنين عملاق الإنسانيّة ورائد حضارتها وعدالتها الاجتماعيّة وإذا بمعاوية لصّ باغٍ فاجر أثيم تلاحقه النقمة والاحتقار.

٢ ـ اضطهاد الشيعة

جهد معاوية في ظلم الشيعة وإرهاقهم حتّى لا يذكر فضل أهل البيت وتطوى صحائف مآثرهم.

وقد عانت الشيعة في عهد الطاغية من الاضطهاد ما لا يمكن وصفه لقسوته، وكان أشدّهم بلاءً، وأعظمهم محنة وشقاء شيعة الكوفة، فقد استعمل عليهم

---

(١) ديوان السماوي.

معاوية الإرهابي المجرم أخاه اللا شرعي زياد بن أبيه ، فأشاع فيهم القتل والإعدام ، وقتلهم تحت كلّ حجر ومدر ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل عيونهم ، وصلبهم على جذوع النخل[١].

ورفع معاوية مذكّرة إلى جميع عمّاله وولاته جاء فيها :

« انظروا إلى مَن قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته ، فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ».

ثمّ شفع بعد ذلك بنسخة أخرى : « من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره ».

وقد تحدّث الإمام الأعظم محمّد الباقر عليه السلام عن عظيم المحن التي لاقتها الشيعة في عهد الطاغية معاوية قال :

« وَقُتِلَتْ شيعَتُنا بِكُلِّ بَلْدَةٍ ، وَقُطِعَتِ الْأَيْدي وَالْأَرْجُلِ عَلَى الظِّنَّةِ ، وَكانَ مَنْ يُذْكَرُ بِحُبِّنا وَالإِنْقطاعِ إِلَيْنا سُجِنَ ، أَوْ نُهِبَ مالُهُ ، أَوْ هُدِّمَتْ دارُهُ »[٢].

إنّه حينما نزا ابن هند على دست الحكم انفتح باب الظلم والجور على شيعة أهل البيت عليهم السلام حتّى أصبح الولاء لهم عاراً ومنقصة وخطيئة يحاسب عليها في أجهزة الحكم ، بل حكم بعضهم أنّ مودّة أهل البيت عليهم السلام كفر وإلحاد ومروق من الدين حكى لنا ذلك شاعر الإسلام الكميت بقوله :

يُشيرونَ بالأيْدي إِلَيَّ وقَولُهُم ... ألا خابَ هذا وَالمُشيرونَ أخْيَبُ

فَطائِفَةٌ قَدْ كَفَّرَتْني بِحُبِّكُمْ ... وطائِفَةٌ قالوا : مُسيئٌ وَمُذنِبُ

---

(١) شرح النهج : ٣/١٥.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام : ٢/٣٤٩.

يَـعيبونَني مِـنْ خِبِّهِمْ وضَـلالِهِمْ عَلىٰ حُبِّكُمْ بَل يَسْخَرونَ وَأَعجَبُ
وقـالوا تُـرابِـيٌّ هَـواهُ ورَأيُـهُ بِـذلِكَ أُدْعـىٰ فـيهِمُ وَأُلَـقَّبُ
ومـا لِـيَ إلّا آلَ أحْـمَدَ شـيعَةٌ وما لِيَ إلّا مَذْهَبَ الحَقِّ مَذْهَبُ(١)

أرأيتم الأحكام القسريّة التي صبّت على أتباع أهل البيت وشيعتهم من ذلك المجتمع الذي أفسده معاوية وأبعده عن قادته الحقيقيّين الذين أوجب الله مودّتهم على عباده.

ويقول أبو الأسود الدؤلي:

أُحِبُّ مُـحَمَّداً حُـبّاً شَـديداً وَعَـبّاساً وحَـمزَةَ والوَصِـيّا(٢)
هَـوىً أُعْـطيتُهُ مُنْذُ اسْتَدارَتْ رَحَى الإِسْلامِ لَمْ يَـعدِلْ سَـوِيّا
بَـنو عَـمِّ النَّبيِّ وأَقْـرَبوهُ أَحَبُّ النّـاسِ كُـلُّهُمُ إِلَـيّـا
فَـإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْـداً أُصِـبْهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كانَ غَيّا(٣)

لقد أعرب أبو الأسود بهذه الأبيات عن حبّه العارم لأهل البيت، وأنّه ليس جديداً، وإنّما هو قديم منذ استدارت رحى الإسلام، وأنّ الولاء لهم إن كان رشداً فقد أصابه وظفر به، وإن كان غيّاً فليس بمخطئ.

وهذا عبدالله بن كثير السهمي ردّ بالأبيات التالية على من زعم أنّ الولاء لأهل البيت ذنب اقترفه، وإنّما حبّهم كفّارة للذنوب ونجاة من النّار، يقول:

إِنَّ امْـرءً أَمْسَتْ مَـعايِبُهُ حُبُّ النَّـبيِّ لغَـيرُ ذي ذَنبِ

---

(١) الهاشميّات.

(٢) الوصي هو الإمام عليّ عليه السلام.

(٣) الكامل للمبرد: ٢٠٥/٣.

وبَني أَبي حَسَنٍ وَوالدِهِمْ　　مَنْ طابَ في الأرْحامِ والصُّلْبِ
أَيُعَدُّ ذَنْباً أَنْ أُحِبَّهُمُ　　بَلْ حُبُّهُمْ كَفّارَةُ الذَّنْبِ[1]

إنّ ولاء الشيعة للإمام لم يكن ولاءً عاطفيّاً، وإنّما هو مستمدّ من كتاب الله العظيم الذي ألزم بمودّتهم.

قال تعالى: ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾[2].

وقد باءت محاولات معاوية وسائر حكّام بني أُميّة وبني العبّاس بالفشل والخسران، فقد طبع حبّ آل البيت في ضمائر الشيعة ودخائل نفوسهم.

٣ ـ التصفية الجسديّة لأصحاب الإمام

عمد معاوية لاستئصال شيعة الإمام وإعدامهم لأنّه لا يمكن تحويل الدولة إلى صبغة أمويّة بعيدة عن هدي الإسلام وقيمه إلّا بالقضاء على أعلام أصحاب الإمام الذين تربّوا بهديه، ومكوّناته العلميّة، ويشيعون بين النّاس علومه ومعارفه وسموّ ذاته.

لقد صمّم ابن هند على تصفية أصحاب الإمام وحملة علومه لأنّهم ـ فيما يحسب ـ مصدر خطر على دولته، فأشاع فيهم القتل والإعدام، وكان من بينهم:

حجر بن عدي

أمّا حجر بن عدي فهو في طليعة أصحاب النبيّ ﷺ في فضله وعلمه وزهده وتحرّجه في الدين، وبلغ من عظيم طاعته إلى الله تعالى أنّه ما أحدث حتّى توضّأ، وما توضّأ إلّا صلّى، وكان ـ فيما يقول الرواة ـ يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة،

---

(١) البيان والتبيين: ٣/٣٦٠.

(٢) الشورى ٤٢: ٢٣.

وأنه كان مستجاب الدعوة ، ومن بين دعواته المستجابة أنّه لمّا أُخذ أسيراً إلى الطاغية أصابته جنابة في أثناء الطريق ، فقال للموكّل بحراسته : أعطني شرابي أتطهّر به ، فامتنع من إجابته لأنّه خاف من معاوية ، فشقّ على حجر أن يبقى جُنُباً ، فدعا الله تعالى أن يمكّنه من الماء ، فاستجاب الله تعالى دعاءه ، فأرسل إليه سحابة هطلت عليه بالماء الغزير فاغتسل منه[١].

ولمّا تبنّت سياسة معاوية سبّ الإمام على المنابر في خطب الجمعة وغيرها أخذ حجر ينكر ذلك كأشدّ ما يكون الإنكار ، ولم يحفل بالسلطة التي لم تقم أي وزن للمصلحين والمتحرّجين في دينهم ، ولم يسع حجر وهو المتحمّس لدينه أن يسمع سبّ الإمام ويسكت دون أن ينكر ذلك ، فقد رأى الخبيث النجس المغيرة بن شعبة قد نزا على المنبر بجامع الكوفة ، وهو يسبّ الإمام أمير المؤمنين بطل الإسلام فانبرى إليه ، وقطع خطابه وقال له بحماس : « ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾[٢] ، وأنا أشهد أنّ من تذمّون وتعيّرون لاحق بالفضل ، ومن تزكّون أولى بالذمّ » .

ووثب قوم من أصحاب حجر ، فقالوا بمثل مقالته ، فالتفت المغيرة إلى حجر قائلاً :

« يا حجر ، لقد رمي بسهمك إذ كنت أنا الوالي عليك . يا حجر ، اتّق غضب السلطان ، إنّ غضبة السلطان ممّا تهلك أمثالك كثيراً » .

ولم يزل حجر متحمّساً لدينه ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، حتّى هلك المغيرة وولي بعده الإرهابي زياد بن أبيه ، فجعل حجر ينكر عليه خططه المنافية للدين ، ويشدّد النقمة عليه ، فقد نزا زياد على المنبر يوم الجمعة فأطال في خطبته ، حتّى ضاق وقت الصلاة ، فانبرى إليه حجر ، وصاح به :

---

(١) الاستيعاب : ١/٣٥٦ ـ ٣٥٩. الإصابة : ١/٣١٥. الغدير : ١١/٥٤.

(٢) النساء ٤: ١٣٥.

« الصلاة » .

فلم يعن به ، ولم يعر للصلاة أي اهتمام ، وصاح به حجر ثانياً :

« الصلاة » .

ولم يحفل به زياد ، واسترسل في خطبته ، وخاف حجر فوت الصلاة ، فتناول الحصى ورماه به ، وثار النّاس معه ، فأجبر الطاغية على ترك خطابه ، ونزل عن المنبر ، وصلّى بالنّاس ، وقد انتفخت أوداجه غيظاً وغضباً من حجر ، وعزم على التنكيل به ، وقال في خطاب له :

« ما أنا بشيء إن لم أمنع ساحة الكوفة من حجر وادعه نكالاً لمن بعده » .

ويل أمّك يا حجر ، سقط العشاء بك على سرحان » ، ثمّ تمثّل :

أَبْلِغْ نَصيحةَ إنَّ راعِيَ إبْلِها ... سَقَطَ العشاءُ بهِ عَلىٰ سَرْحانِ

وأرسل زياد إلى جماعة من وجوه أهل الكوفة فأمرهم أن يردّوا حجراً عن خطّته ، فلم يستجب لهم ، فأوعز إلى شرطته أن يأتوه به ، ولم تتمكّن الشرطة من إلقاء القبض عليه ، فقد التفّ حوله أصحابه ، وأنقذوه منهم ، وأخيراً هدّد زياد زعماء الكوفة بالتنكيل إن لم يأتوه بحجر ، فانطلق مدير شرطته ومعه المنافق محمّد بن الأشعث الكندي في مجموعة كبيرة من الشرطة ، فألقوا القبض على حجر وأصحابه ، وجيء بهم مخفورين ، فأمر بإيداعهم في السجن .

وطلب زياد من أهل الكوفة أن يشهدوا على حجر وأصحابه فشهد قوم أنّهم تولّوا عليّاً ، وعابوا عثمان ونالوا من معاوية ، فلم يرض زياد بهذه الشهادة ، وقال : إنّها غير قاطعة بمعنى أنّها لا تبيح سفك دمائهم ، فانبرى أبو بردة ابن الخبيث الدنس الأشعري فكتب شهادة هذا نصّها :

« هذا ما شهد عليه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري لله ربّ العالمين :

أشهد أنّ حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وكفر بالله عزّ وجلّ كفرة صلعاء».

ورضي زياد بهذه الشهادة التي يستباح بها سفك دم حجر، وطلب من خونة الأمّة أن يوقّعوا عليها، فأمضاها سبعون رجلاً من الذين لا يرجون لله وقاراً، ورفع زياد الوثيقة إلى معاوية، فأمره أن يحمله ويشدّه موثوقاً بالحديد، وأخرجه زياد ليلاً مع جماعة من أصحابه إلى دمشق فصعدت ابنته إلى سطح الدار، ولا عقب له غيرها، وهي تذرف أحرّ الدموع وهي ترى القافلة تسير بأبيها نحو الموت، فأخذت تناجي القمر وتبثّه لوعتها وأحزانها قائلة:

تَرَفَّعْ أيُّها القَمَرُ المُنيرُ ... لَعَلَّكَ أَنْ تَرى حِجْراً يَسيرُ

يَسيرُ إلىٰ مُعاوِيَةَ بنِ حَرْبٍ ... لِيَقْتُلَهُ كَذا زَعَمَ الأَميرُ

ويَصْلِبُهُ عَلىٰ بابَي دِمَشْقٍ ... وَتَأْكُلُ مِنْ مَحاسِنِهِ النُّسورُ

تَجَبَّرَتِ الجَبابِرُ بَعدَ حِجْرٍ ... وطابَ لَها الخَوَرْنَقُ والسَّديرُ[1]

أَلا يا حِجْرُ حِجْرُ بَني عَدِيٍّ ... تَلَقَّتْكَ السَّلامَةُ والسُّرورُ

أَخافُ عَلَيكَ ما أَرْدىٰ عَلِيّاً ... وشَيخاً في دِمَشْقَ لَهُ زَئيرُ

أَيا يا لَيتَ حِجْراً ماتَ مَوتاً ... ولَمْ يُنْحَرْ كَما نُحِرَ البَعيرُ

فَإِنْ تَهْلَكْ فَكُلُّ عَميدِ قَومٍ ... إلىٰ هُلْكٍ مِنَ الدُّنيا يَصيرُ[2]

---

(١) الخورنق والسدير: قصران يقعان بالقرب من الحيرة، بناهما النعمان بن امرؤ القيس.

(٢) مروج الذهب: ٢/٣.

وقيل: إنّ الأبيات إلى هند بنت زيد الأنصارية، وكانت تتشيّع.

في مرج عذراء

وانتهت قافلة الصحابي العظيم تجدّ في السير لا تلوي على شيء ، حتّى انتهت إلى مرج عذراء ، وعرف حجر أنّه بهذه القرية يقتل ، فقال :

« والله إنّي لأوّل مسلم نبحته كلابها ، وأوّل مسلم كبّر بواديها »[١]

وتقدّم البريد بأخبارهم إلى الطاغية معاوية فسرّ بذلك ، وأرسل إليه رجلاً أعور من جلاوزته ، فأمره بإعدام حجر وجماعته إن لم يتبرّوا من الإمام أمير المؤمنين ويسبّوه ، فلمّا قدم قال رجل من أصحاب حجر :

« إن صدق الزجر[٢] فإنّه سيقتل منّا النصف وينجو الباقون ».

« كيف ذاك ؟ ».

« أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه ».

وقدم الجلّاد على حجر فقال له ولأصحابه :

« إنّ أمير المؤمنين أمرني بقتلك يا رأس الضلال ، ومعدن الكفر والطغيان ، والمتولّي لأبي تراب ، وقتل أصحابك ، إلّا أن ترجعوا عن كفركم ، وتلعنوا صاحبكم ، وتتبرّأوا منه ».

فانبرى حجر مع الكوكبة المؤمنين من أصحابه وهم تعلنون رفضهم الكامل للبراءة من الإمام ويعلنون تمسّكهم به مستهينين بالموت ، قائلين بلسان واحد :

« إنّ الصبر على حدّ السيف لأيسر علينا ممّا تدعونا إليه ، ثمّ القدوم على الله وعلى نبيّه ، وعلى وصيّه أحبّ إلينا من دخول النّار ».

---

(١) الكامل : ٣/١٩٢.

(٢) الزجر : الحدس.

ثمّ حفرت قبورهم، فقام الجلّادون بتنفيذ حكم الإعدام فيهم، وطلب حجر منهم حاجة غالية رخيصة عند القوم قائلاً:

«اتركوني أتوضّأ وأصلّي، فإنّي ما توضّأت إلّا صلّيت».

وسمحوا له بذلك، فصلّى وأطال في صلاته، والتفت إلى القوم قائلاً:

«والله ما صلّيت صلاة أخفّ منها، ولولا أن تظنّوا فيَّ جزعاً من الموت لاستكثرت منها».

وأخذ يناجي الله تعالى ويدعوه قائلاً:

«اللّهمّ إنّا نستعديك على أُمّتنا، فإنّ أهل الكوفة شهدوا علينا، وأنّ أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها، فإنّي لأوّل فارس من المسلمين سلك في واديها، وأوّل رجل من المسلمين نبحته كلابها».

وكان آخر ما نطق به:

«لا تطلقوا عنّي حديداً، ولا تغسلوا عنّي دماً، فإنّي ملاق معاوية على الجادّة»[1].

ثمّ نفّذ فيه حكم الإعدام مع ستّة من أصحابه الأبرار، ففي ذمّة الله يا حجر أنت وأصحابك، فلقد استشهدت في سبيل هذا الدين الذي قام بدماء الأزكياء والأبرار أمثال الشهيد الخالد عمّار بن ياسر، وبقيّة الصفوة من أصحاب الإمام وصيّ رسول الله، وباب مدينة علمه، والويل لكسرى العرب معاوية بن أبي سفيان الذي قتل أولياء الله تعالى وعاث في الأرض فساداً.

عبدالرحمن العنزي

ألقت جلاوزة معاوية القبض على عبدالرحمن بن حسّان العنزي لولائه للإمام

---

(١) الاستيعاب: ١/٣٥٦ ـ ٣٥٩.

أمير المؤمنين ، وطلب منهم مواجهة معاوية ، فاستجابوا له ، ولمّا مثل عنده قال له :

« إيه يا أخا ربيعة ، ما تقول في عليّ ؟ » .

« دعني ولا تسألني فهو خير لك » .

« والله ! لا أدعك » .

« أشهد أنّه كان من الذاكرين الله كثيراً ، والآمرين بالحقّ ، والقائمين بالقسط ، والعافين عن النّاس » .

ولم يجد معاوية وسيلة يستبيح بها دمه ، فعرج إلى عميد الأمويّين عثمان بن عفّان قائلاً :

« ما قولك في عثمان ؟ »

« هو أوّل من فتح أبواب الظلم ، وأرتج أبواب الحقّ » .

« قتلت نفسك » .

« بل إيّاك قتلت ، ولا ربيعة بالوادي » .

وقد ظنّ أسرته تقوم بحمايته إلّا أنّه لم يستجب له أحد ، وأشاح ابن هند بوجهه عنه ، وكتب إلى زياد رسالة جاء فيها :

« أمّا بعد .. فإنّ هذا العنزي شرّ من بعثته ، فعاقبه عقوبة هو أهلها ، واقتله شرّ قتلة » .

ولمّا وردت رسالة الطاغية إلى أخيه اللاشرعي زياد بعث به إلى قس الناطف ، وأمر بدفنه حيّاً ، فدفن وهو حيّ »[1] .

وهذه من حسنات كسرى العرب أن يدفن خيار المسلمين أحياء ، وينكّل بهم

---

(١) التعليقات على منهج المقال : ١٤٠ .

أفظع التنكيل وأقساه.

رشيد الهجري

من خيار تلاميذ الإمام عليه السلام، فقد أخذ الكثير من العلوم عنه، خصوصاً ما يتعلّق بالملاحم والمغيّبات، وروت عنه ابنته فنواء قالت: سمعت أبي يقول لي:

«يا رُشَيدُ، كَيْفَ صَبْرُكَ إِذا أَرْسَلَ إِلَيْكَ دَعِيُّ بَني أُمَيَّةَ فَقَطَعَ يَدَيْكَ وَرِجْلَيْكَ وَلِسانَكَ؟».

«يا أمير المؤمنين آخر ذلك إلى الجنّة؟».

«يا رُشَيدُ، أَنْتَ مَعي في الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ».

وخرج رشيد مع الإمام إلى بستان فاستظلّا تحت نخله، فقام صاحب البستان إلى نخلة فأخذ منها رطباً وقدّمه لهما، فالتفت رشيد للإمام قائلاً:

«ما أطيب هذا الرطب؟».

«أَما إِنَّكَ سَتُصْلَبُ عَلىٰ جِذْعِها» وعيّن له النخلة.

فكان رشيد يتعاهد تلك النخلة ويتعبّد تحتها، واجتاز عليها يوماً فرأى سعفها قد قطع، فشعر بدنوّ أجله، واجتاز عليها مرّة أخرى فرأى نصفها قد قطع، فأيقن بدنوّ أجله».

وفي أيّام المحنة الكبرى للشيعة في عهد المجرم زياد بعث خلفه، فلمّا حضر عنده قال بنبرات تقطر غضباً:

«ما قال لك خليلك إنّا فاعلون بك؟».

«تقطعون يدي ورجلي وتصلبوني».

«أما والله لأكذّبنّ حديثه، خلّوا سبيله».

فخلّوا سراحه ، وندم الطاغية على ذلك ، فأمر جلاوزته بردّه ، فلمّا حضر قال له :

« لا نجد لك شيئاً أصلح ممّا قال صاحبك ، إنّك لا تزال تبغي لنا سوءً إن بقيت ، فاقطعوا يديه ورجليه » .

وقامت الجلاوزة بقطع يديه ورجليه وهو يتكلّم[١] ، فنقل كلامه إلى زياد ، فأمر بصلبه خنقاً ، فقال رشيد لهم : قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه ـ وهو قطع لسانه ـ فأمر الطاغية بقطع لسانه ، فقال : « هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرني بقطع لساني » ، وقطعت الجلاوزة لسانه[٢] .

لقد مثّل بهذا العبد الصالح أقسى ألوان التمثيل ، وليس له أي ذنب اقترفه سوى ولائه لوصيّ رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه .

عمرو بن الحمق الخزاعي

وكان عمرو من خيرة أصحاب الإمام أمير المؤمنين ، ومن عبون أصحاب النبيّ في تقواه وورعه ، سقى النبيّ لبناً فدعا له أن لا تُرى في كريمته شعرة بيضاء[٣] ، وقد دعا له الإمام فقال :

« **اللّٰهُمَّ نَوِّرْ قَلْبَهُ بِالتُّقىٰ ، وَاهْدِهِ إِلىٰ صِراطِكَ الْمُسْتَقيم** »[٤] .

وكان الإمام يبجّله ويعظّمه ، فقال له :

« **لَيْتَ لي في جُنْدي مِثْلَكَ مائَة** »[٥] .

وكان عمرو يخلص للإمام عن معرفة وفهم ، فقد قال للإمام :

---

(١) و (٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢/٣٧٠ .

(٣) الإصابة : ٢/٥٢٦ .

(٤) سفينة البحار : ٢/٣٦٠ .

(٥) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢/٣٧١ .

« يا أمير المؤمنين ، والله ! ما أحببتك للدنيا ولا للمنزلة تكون لي بها ، وإنّما أحببتك لخمس خصال : إنّك أوّل المؤمنين إيماناً ، وابن عمّ رسول الله ﷺ ، وأعظم المهاجرين والأنصار ، وزوج سيّدة النساء ﷺ وأبو ذرّيّته الباقية من رسول الله ﷺ ، فلو قطعت الجبال الرواسي ، وعبرت البحار الطوامي في توهين عدوّك ، وتلقين حجّتك لرأيت ذلك قليلاً من كثير ما يجب عليّ من حقّك »[1].

حكى هذا الكلام عن إيمان عمرو بمكانة الإمام ، وأنّه مهما بذل من وسائل الخدمة لما أدّى حقّ الإمام.

ولمّا ابتُلي الكوفيّون بولاية الإرهابي زياد بن أبيه عمّ الخوف والذعر المخلصين من شيعة الإمام ، ومن بينهم الخزاعي ومعه رفاعة بن شدّاد ففرّا إلى المدائن ، ومكثا فيها بعض الوقت ، ثمّ هربا إلى الموصل ، وقبل أن يصلا إليه مكثا في جبل هناك يستجمّا فيه ، واجتاز عليهما شخص فاستنكر شأنهما ، ومضى إلى عامل الموصل بلتعة بن أبي عبدالله فأخبره بشأنهما ، فخرج إليهما مع مفرزة عسكريّة ، فأمّا عمرو فقد كان مريضاً وليس عنده قوّة يستطيع بها على الهرب ، فوقف ، وأمّا رفاعة فقد كان في شرخ الشباب ، فاعتلى فرسه وقال لعمرو:

« أقاتل عنك ».

« ما ينفعني أن تقاتل انج بنفسك ».

وانهزم رفاعة ولم يتمكّنوا من إلقاء القبض عليه ، وأمّا عمرو فقد وقع تحت قبضتهم ، وطلبوا منه أن يعرّفهم بشخصيّته ، فأبى ، وارتابوا منه ، فأرسلوه مخفوراً إلى عبدالرحمن الثقفي ، فلمّا رآه عرفه وبعث رسالة إلى معاوية يخبره بشأنه ، فكتب إليه :

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام : ٢/٣٧١.

« إنّه زعم أنّه طعن عثمان بن عفّان بمشاقص[١] كانت معه ، وإنّا لا نريد أن نعتدي عليه ، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان »[٢].

فأخرجه عبدالرحمن ، وأمر بطعنه تسع طعنات ، فمات في الأولى أو الثانية منها ، ثمّ أخذ رأسه وبعثه إلى معاوية فأمر أن يطاف به في الشام وغيره ، فكان أوّل رأس طيف به في الإسلام[٣].

ثمّ أمر أن يبعث به إلى زوجته في حجرها ، وكانت غافلة ، فلمّا بصرت به اضطربت حتّى كادت أن تموت ، واندفعت ودموعها تتبلور على وجهها قائلة :

« واحزناه لصغر في دار هوان وضيق ، من ضيم سلطان . نفينموه عنّي طويلاً ، وأهديتموه إليّ قتيلاً ، فأهلاً وسهلاً بمن كنت له غير قالية ، وأنا اليوم له غير ناسية ».

ثمّ التفتت إلى الحرسي وقالت له :

« ارجع أيّها الرسول إلى معاوية فقل له : لا تطوه دونه ، أيتم الله ولدك ، وأوحش منك أهلك ، ولا غفر لك ذنبك ».

وأخبر الرسول مقالتها لمعاوية فورم أنفه ، وأمر بإحضارها ، فلمّا مثلت عنده صاح بها :

« أنت يا عدوّة الله صاحبة الكلام الذي بلغني ؟ ».

فانبرت قائلة بشجاعة غير مكترثة به :

« نعم ، غير نازعة عنه ، ولا معتذرة منه ، ولا منكرة له ، فلعمري لقد اجتهدت في الدعاء إن نفع الاجتهاد ، وأنّ الحقّ لمن وراء العباد ، وما بلغت شيئاً من جزائك ،

---

(١) المشاقص : جمع مشقص ، النصل العريض أو سهم فيه نصل عريض.

(٢) تاريخ الطبري : ٤/١٩٧.

(٣) الاستيعاب : ٢/٥١٧.

وأنّ الله بالنقمة من ورائك»[١].

وجرت مناوشات كلاميّة حادّة بينه وبينها أظهرت خبثه ولؤم سريرته، وعدم التزامه بالأعراف العامّة التي قضت على عدم مؤاخذة المرأة في شيء من منطقها.

عبدالله الحضرمي وجماعته

لمّا استشهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حزن عليه عبدالله بن يحيى الحضرمي مع كوكبة من أصحابه، فتركوا الكوفة، وبنوا في خارجها صومعة يتعبّدون فيها، ولمّا علم معاوية شأنهم أمر بإحضارهم عنده، فلمّا مثلوا عنده أمر بقتلهم صبراً، فقتلوا[٢].

ففي ذمّة الله تعالى هؤلاء المؤمنون الذين قتلهم الطاغية الذين لا ذنب لهم إلّا الولاء لله ولرسوله ولأخي رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه.

لقد جهد معاوية على التنكيل والإبادة الشاملة لأصحاب الإمام عليه السلام مخافة أن يذكرون مناقبه ومآثره فيزهد النّاس فيه وفي حكمه.

٤ ـ ترويع نساء الشيعة

ولم يقتصر معاوية في إرهابه واضطهاده على رجال الشيعة وزعمائهم، فقد قام يتحرّى نساءهم، فما ذكرت له امرأة منهم ذات مكانة مهمّة إلّا وبعث خلفها فقابلها بالاستخفاف والاستهانة، وأدخل الفزع والخوف في نفسها، وإذا وفدت عليه امرأة منهم قابلها بالاذلال، وأظهر لها ما يكنّه في نفسه من الحقد والبغض العارم للإمام أمير المؤمنين ولشيعته، وها نحن نقدّم إلى القارئ الكريم أسماء بعض السيّدات

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ٢/٢٧٣.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ٢/٢٧٧.

اللاتي بعث خلفهنّ ، واللاتي وفدن عليه مع ما جرى بينهنّ وبينه من الحديث :

الزرقاء بنت عدي

وكانت الزرقاء بنت عدي بن غالب ممّن عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين عليه السلام ، وكانت من ربّات البلاغة والفصاحة والرأي الصائب ، وكانت في واقعة صفّين تدعو الجماهير إلى نصرة أمير المؤمنين عليه السلام ، وتحريضهم على قتال عدوّه ، ولمّا فجع الإسلام بقتل أمير المؤمنين عليه السلام ، وانتهى الأمر إلى ابن هند كتب إلى عامله بالكوفة أن يحمل إليه الزرقاء بنت عدي ، فبعث بها إليه ، فلمّا دخلت عليه رحّب بها ثمّ قال لها :

« هل تعلمين لِمَ بعثت إليك ؟ » .

ـ « سبحان الله ، أنّى لي بعلم ما لم أعلم !! وهل يعلم ما في القلوب إلّا الله » .

ـ « بعثت إليكِ أن أسألكِ : ألستِ راكبة الجمل الأحمر يوم صفّين بين الصفّين توقدين الحرب ، وتحرّضين على القتال ، فما حملك على ذلك ؟

ـ « يا أمير المؤمنين ، إنّه قد مات الرأس ، وبُتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكّر أبصر ، والأمرُ يحدث بعده الأمر !! » .

ـ « صدقت ، فهل تحفظين كلامك يوم صفّين ؟

ـ « ما أحفظه » .

ـ « ولكنّي والله أحفظه ، لله أبوك لقد سمعتك تقولين : أيّها النّاس ، إنّكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن المحجّة ، فيا لها من فتنة عمياء صمّاء تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها . إنّ المصباح لا يضيء في الشمس ، وإنّ الكواكب لا تنير مع القمر ، وإنّ البغل لا يسبق الفرس ، وإنّ الزفّ[1] لا يوازن

---

(١) الزفّ : الصغير من الريش .

الحجر، ولا يقطع الحديد إلّا الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن استخبرنا أخبرناه. إنّ الحقّ كان بطلب ضالّته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكان قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، وغلب الحقّ باطله، فلا يعجلنّ أحد فيقول: كيف العدل وأنّى؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ألا إنّ خضاب النساء الحنّاء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير عواقب الأمور، إيهاً إلى الحرب غير ناكصين، ولا متشاكسين، فهذا يوم له ما بعده.

وبعد ما تلا معاوية كلامها تأثّر منه، واندفع وهو مغيظ محنق فقال لها:

«والله يا زرقاء، لقد شركت عليّاً في كلّ دم سفكه».

ـ «أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، مثلك من بشّر بخير وسرّ جليسه».

ـ «وقد سرّكِ ذلك؟».

ـ «نعم والله، لقد سرّني قولكَ فأنّى لي بتصديق الفعل؟!».

فانبهر معاوية من إخلاصها لأمير المؤمنين فقال:

«والله لوفاؤكم له بعد موته أحبّ إليّ من حبّكم له في حياته، اذكري حاجتك؟».

ـ «إنّي قد آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً، ومثلُك أعطى من غير مسألة، وجاد عن غير طلب».

ـ «صدقت».

ثمّ أقطعها ضيعة، وأوصلها وردها إلى أهلها[1].

إنّه وإن أكرمها أخيراً، وأجزل لها العطاء، إلّا أنّه قد روّعها وأفزعها أوّلاً، وأظهر لها الظفر والغلبة والنصر عليها.

---

(١) بلاغات النساء / ابن طيفور: ٢٢.

أُمّ الخير البارقيّة

كانت أُمّ الخير بنت الحريش البارقيّة من سيّدات النساء، ومن البليغات البارعات، وقد عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين ﷺ، وكانت في واقعة صفّين تحرّض الجماهير على حرب ابن هند، وتحفّزهم على الذبّ عن أمير المؤمنين ونصرته، وقد تألّم معاوية من مواقفها، وأضمر لها الحقد والعداء، ولمّا انحسرت روح الإسلام باستيلائه على زمام الحكم كتب إلى واليه على الكوفة يأمره بأن يحمل إليه أُمّ الخير لينتقم منها، فلمّا ورد الكتاب إلى عامله بعثها إليه، فلمّا دخلت على معاوية قالت:

«السلام عليك يا أمير المؤمنين».

ـ «وعليكِ السلام، وبالرغم والله دعوتني بهذا الإسم».

ـ «مه يا هذا، فإنّ بديهة السلطان مدحظة لما يجب علمه».

ـ «صدقتِ يا خالة، وكيف رأيت مسيرك؟».

ـ «لم أزل في عافية وسلامة حتّى أوفدت إلى ملك جزل، وعطاء بذل، فأنا في عيش أنبق عند ملك رفيق».

ـ «بحسن نيّتي ظفرت بكم وأعنت عليكم».

ـ «مه يا هذا، لك والله من دحض المقال ما تردّى عاقبته».

ـ «ليس لهذا أردناك».

ـ «إنّما أجرى في ميدانك إذا أجريت شيئاً أجريته، فاسأل عمّا بدا لك؟».

ـ «كيف كان كلامكِ يوم قُتل عمّار بن ياسر؟».

ـ «لم أكن والله روّيته قبل، ولا زورته بعد، وإنّما كانت كلمات نفثهنّ لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أُحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت؟».

ـ «لا أشاء ذلك!».

ثمّ التفت إلى أصحابه فقال لهم:

«أيّكم حفظ كلام أمّ الخير؟

فانبرى إليه أحدهم فقال له:

«أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد».

فقال له: «هاته».

فقال: «كأنّي بها وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية، وعلى جمل أرمك[1]، وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: أيّها النّاس، اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم؛ إنّ الله قد أوضح الحقّ، وأبان الدليل، ونوّر السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله! أفراراً عن أمير المؤمنين؟ أم فراراً من الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحقّ؟ أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[2].

ثمّ رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللّهمّ قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا ربّ أزمّة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألّف القلوب على الهدى، وردّ الحقّ إلى أهله، هلمّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصيّ الوفيّ، والصدّيق الأكبر، إنّها احن بدريّة، وأحقاد جاهليّة، وضغائن أحديّة، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبدشمس.

ثمّ قالت: قاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون، صبراً معاشر

---

(١) جمل أرمك: أي لونه كلون الرماد.

(٢) محمّد ﷺ ٤٧: ٣١.

المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربّكم، قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرّت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين، حين تحلّ الندامة فيطلبون الإقالة، إنّه والله من ضلّ عن الحقّ وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنّة نزل النّار.

أيّها النّاس، إنّ الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطأوا مدّة الآخرة فسعوا لها، والله أيّها النّاس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطّل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عمّ رسول الله ﷺ وزوج ابنته وأبي ابنيه؟ خلق من طينته، وتفرّع من نبعته، وخصّه بسرّه، وجعله باب مدينته، وعلم المسلمين بحبّه، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيّده بمعونته، ويمضي على سنن استقامته لا يعرج لراحة الدأب، وهو مفلق الهام، ومكسّر الأصنام، إذ صلّى والنّاس مشركون، وأطاع والنّاس مرتابون، فلم يزل كذلك حتّى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وفرّق جمع هوازن، فيا لها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً، وردة وشقاقاً، وقد اجتهدت في القول، وبالغت في قلوب قوم نفاقاً، وردة وشقاقاً، وقد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

فانتفخت أوداج معاوية غيظاً وحنقاً، وقال لها بنبرات تقطر غضباً:

«والله يا أمّ الخير ما أردت بهذا إلّا قتلي، والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك».

فأجابته وهي غير خائفة منه:

«والله ما يسوءني يابن هند أن يجري الله ذلك على يد من يسعدني الله بشقائه».

ـ «هيهات ياكثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفّان؟».

ـ « وما عسيت أن أقول فيه ، استخلفه النّاس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون » .

وبعد حديث جرى بينهما أطلق أخيراً سراحها ، وعفا عنها [١] .

سودة بنت عمارة

وسودة بنت عمارة بن الأسك الهمداني من سيّدات نساء العراق ، ومن ربّات الفصاحة والبيان ، ورثت حبّ أمير المؤمنين من آبائها الكرام الذين عرفوا بالحبّ والإخلاص له ، وفدت على معاوية تشتكي عنده جور عامله .

فلمّا دخلت عليه عرفها فقال لها :

« ألست القائلة يوم صفّين :

« شَمِّر كفِعلِ أبيكَ يابنَ عُمارَةٍ ... يومَ الطّعانِ ومُلتَقى الأقرانِ

وانْصُرْ عليّاً والحسينَ وَرَهطَهُ ... واقْصِدْ لِهِنْدٍ وابْنِها بِهَوانِ

إنَّ الإمامَ أخا النَّبيِّ مُحمَّدٍ ... عَلَمُ الهُدى ومَنارةُ الإيمانِ

فَقِهِ الحُتوفَ وسِرْ أمامَ لِوائِهِ ... قُدْماً بأبيَضِ صارمٍ وسِنانِ »

قالت : « إي والله ، ما مثلي من رغب عن الحقّ ، أو اعتذر بالكذب » .

ـ « فما حملك على ذلك ؟! » .

ـ « حبّ عليّ واتّباع الحقّ » .

ـ « فوالله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئاً ؟! » .

ـ « يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبُتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نُسي ، وإعادة ما مضى » .

---

(١) أعلام النساء : ٣٣٢/١ . بلاغات النساء : ٣٦ .

ـ « هيهات ما مثل مقام أخيك ينسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك » .

ـ « صدق فوك لم يكن أخي ذميم المقام ، ولا خفيّ المكان ، كان والله كقول الخنساء :

وإنَّ صَخراً لتَأتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ »

ـ « صدقتِ ، كان كذلك » .

ـ « مات الرأس ، وبُتر الذنب ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي ممّا استعفيت منه » .

ـ « قد فعلت ، فما حاجتك ؟ » .

ـ « إنّك أصبحت للنّاس سيّداً ، ولأمرهم متقلّداً ، والله سائلك من أمرنا ، وما افترض من حقّنا ، ولا يزال يقدم علينا من ينوء بعزّك ، ويبطش بسلطانك ، فيحصدنا حصد السنبل ، ويدوسنا دوس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة . هذا بسر بن أرطاة قدم علينا من قِبلك ، فقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة ، فأمّا عزلته عنّا فشكرناك ، وإمّا لا فعرفناك » .

فتأثّر معاوية من كلامها وقال لها :

ـ « أتهدّديني بقومك ؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس ، فأدرك إليه ينفذ فيك حكمه » .

فاطرقت إلى الأرض وهي باكية العين ، حزينة القلب ، ثمّ أنشأت تقول :

« صَلَّى الإلهُ على جِسمٍ تَضَمَّنَهُ ... قَبْرٌ فأصبَحَ فيهِ العَدلُ مَدفونا

قَد حالفَ الحقَّ لا يَبْغي بِهِ بَدلاً ... فَصارَ بِالحَقِّ والإيمانِ مَقرونا »

ـ « ومَن ذاك ؟ » .

ـ « عليّ بن أبي طالب ».

ـ « وما صنع بك حتّى صار عندك كذلك ؟ ».

ـ « قدمت عليه في رجل ولّاه صدقتنا ، فكان بيني وبينه ما بين الغثّ والسمين ، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو إليه ما صنع ، فوجدته قائماً يصلّي ، فلمّا نظر إليّ انفتل من صلاته ، ثمّ قال لي برأفة وتعطّف :

أَلَكِ حاجَةٌ ؟

فأخبرته الخبر ، فبكى ثمّ قال :

اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ ، إِنِّي لَمْ آمُرْهُمْ بِظُلْمِ خَلْقِكَ ، وَلَا بِتَرْكِ حَقِّكَ .

ثمّ أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجراب ، فكتب فيها :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيم

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾(١).

إِذا قَرَأْتَ كِتابي فَاحْتَفِظْ بِما في يَدَيْكَ مِنْ عَمَلِنا حَتّى يَقْدِمَ عَلَيْكَ مَنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ ، وَالسَّلام ».

فأخذته منه ، والله ما ختمه بطين ولا حزمه بحزام .

فانبهر معاوية وتعجّب من هذا العدل والإنصاف ، وقال :

---

(١) هود ١١ : ٨٥ و ٨٦ .

« اكتبوا لها بالإنصاف والعدل لها ».

فانبرت قائلة :

« ألي خاصّة أم لقومي عامّة ؟ ».

ـ « وما أنت وغيرك ؟ ».

ـ « هي والله إذن الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلّا فأنا كسائر قومي ».

ـ « هيهات لقد لمظكم ابن أبي طالب الجرأة وغرّكم قوله :

فَلَو كُنتُ بَوّاباً عَلىٰ بابِ جَنَّةٍ لَقُلتُ لِهَمدانَ ادخُلوا بِسَلامِ

ثمّ قال : « اكتبوا لها ولقومها بحاجتها »[1].

أُمّ البراء بنت صفوان

وكانت أُمّ البراء بنت صفوان بن هلال من سيّدات النساء في عفّتها وطهارة ذيلها ، عرفت بالولاء والإخلاص لأمير المؤمنين عليه السلام ، وكان لها موقف مشرّف في صفّين ، فكانت تحرّض الجماهير الحاشدة على مناجزة معاوية وقتاله ، ولمّا انتهى الأمر إليه وفدت عليه فقال لها :

« كيف أنت يا بنت صفوان ؟ ».

ـ « بخير يا أمير المؤمنين ».

ـ « كيف حالك ؟ ».

ـ « ضعفتُ بعد جلد ، وكسلتُ بعد نشاط ».

ـ « شتّان بينك اليوم وحين تفولين :

---

(١) أعلام النساء : ٦٦٣/٢ . العقد الفريد : ٢١١/١ . بلاغات النساء : ٣٠ .

يا عَمرو دونَكَ صارِماً ذا رَونَقٍ — عَضْبَ المَهزّةِ ليسَ بالخَوّار
أَسْرِجْ جَوادكَ مُسْرِعاً وَمُشَمِّراً — لِلحَرْبِ غَيرَ مُعَرِّدٍ لِفرارِ
أَجِبِ الإمامَ ودبَّ تحتَ لِوائه — وافْرِ العَدُوَّ بِصارِمٍ بَتّارِ
يا لَيْتَني أَصْبَحتُ ليسَ بِعَوْرةٍ — فَأَذُبَّ عنهُ عَساكِرَ الفُجّارِ»

ـ «قد كان ذاك يا أمير المؤمنين، ومثلك عفا، والله تعالى يقول: ﴿عَفَا اللهُ عَمّا سَلَفَ﴾[1]».

ـ «هيهات، أما أنّه لو عاد لعُدتِ، ولكن اخترم دونك، فكيف قولك حين قُتل؟».

فقالت: «نسيته».

فانبرى إليه بعض جلسائه فقال إنّها تقول:

«يا لَلرِّجالِ لِعظمِ هَولِ مُصيبَةٍ — فَدحَتْ فَليسَ مُصابُها بالهازِلِ
الشَّمسُ كاسِفَةٌ لِفَقدِ إمامِنا — خَيْرِ الخَلائقِ والإمامِ العادِلِ
يا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشى — فَوقَ التُّرابِ لِمُحْتَفٍ أوْ ناعِلِ
حاشا النَّبِيَّ لَقَدْ هَدَدْتَ قُواءَنا — فالحقُّ أَصبَحَ خاضِعاً لِلباطِلِ»

فتألّم ابن هند وقال لها:

«قاتلكِ الله يا بنت صفوان، ما تركتِ لقائل مقالاً، اذكري حاجتك».

ولمّا رأت بنت صفوان الاستهانة والتحقير من معاوية امتنعت أن تفوه بحاجتها وتسأله بمسألتها، فقالت له:

---

(١) المائدة ٥: ٩٥.

« هيهات بعد هذا ، ولا لا سألتك شيئاً ».

ولمّا قامت من مجلسه عثرت فقالت : « تعس شانئي عليّ »[١].

وقد لاقت هذه المرأة النبيلة الكريمة المحتد ، والطيّبة العنصر ، الاستهانة والإذلالة لحبّها لأمير المؤمنين عليه السلام .

بكارة الهلاليّة

وبكارة الهلاليّة من سيّدات النساء الموصوفات بالشجاعة والإقدام والفصاحة والبلاغة ، كانت من أنصار أمير المؤمنين في واقعة صفّين ، وقد خَطَبَتْ فيها خطباً حماسيّة دعت فيها جنود الحقّ للذبّ عن سيّد المسلمين وأمير المؤمنين عليه السلام ولحرب عدوّه .

وفدت بكارة على معاوية بعد أن تمّ له الأمر ، وقد كبُرت ودقّ عظمها ، ومعها خادمان وهي متّكئة عليهما وبيدها عكاز ، فسلّمت على معاوية بالخلافة فأحسن لها الردّ وأذن لها بالجلوس ، وكان عنده مروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فعرفها مروان ، فالتفت إلى معاوية قائلاً :

« أما تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟! ».

ـ « ومن هي ؟ ».

ـ « هي التي كانت تعين علينا يوم صفّين وهي القائلة :

يا زَيدُ دونَكَ فَاسْتَتِرْ مِنْ دارِنا ... سَيفاً حِساماً في التُّرابِ دَفينا

قَدْ كانَ مَذْخوراً لكُلِّ عَظيمَةٍ ... فَاليومَ أبْرزَهُ الزَّمانُ مَصونا »

واندفع ابن العاص قائلاً : « يا أمير المؤمنين ، وهي القائلة :

---

(١) بلاغات النساء : ٧٥.

أتَــرى ابـنَ هِـنْدٍ للـخلافَةِ مـالِكاً ... هَـــيهاتَ ذاكَ ومـــا أرادَ بَـعيدُ
منَّتْكَ نَفسُكَ فـي الخَـلاءِ ضَـلالةً ... أغْـراكَ عَـمرو للشَّـقا وَسَـعيدُ
فَـارْجِعْ بـأنْكَدِ طـائِرٍ بنُحوسِها ... لاقَتْ عَـليّاً أسْـعدٌ وسـعودُ»

وانبرى بعدهما سعيد قائلاً:

« يا أمير المؤمنين ، وهي القائلة :

قَدْ كُنتُ آمَلُ أنْ أموتَ ولا أرى ... فَـوقَ المَـنابرِ مِنْ أُمَيَّة خـاطِباً
فَـاللهُ أخَّـرَ مُـدَّتي فَـتَطاوَلَتْ ... حَـتّى رأيتُ مِنَ الزَّمـانِ عَـجائِبا
فـي كُـلِّ يَـومٍ لا يَـزالُ خَـطيبُهُمْ ... وَسطَ الجُموعِ لآلِ أحْـمَد عـائِبا»

وسكت القوم ،فالتفتت بكارة إلى معاوية قائلة له :

« نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ، فقصرت محجّتي ، وكثر عجبي ، وعشى بصري ، وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين »[١].

ثمّ انصرفت والألم في فؤادها ، قد نبحتها كلاب معاوية واحتوشها جلساؤه الأوغاد.

أروى بنت الحارث

وأروى بنت الحارث بن عبدالمطلب من سيّدات نساء المسلمين في إقدامها وشجاعتها وحسن منطقها ، قد عرفت بالولاء والحبّ لأمير المؤمنين عليه السلام ، وفدت على معاوية فوجّهت له سهاماً من القول ، وعرضت في كلامها عن محنة

---

(١) بلاغات النساء : ٣٤.

أهل البيت عليهم السلام وما لاقوه بعد النبيّ ﷺ من المحن والبلاء ، وهذا نصّ كلامها :

« أنت يابن أخي لقد كفرت بالنعمة ، وأسأت لابن عمّك ـ تعني عليّاً ـ الصحبة ، وتسمّيت بغير اسمك ، وأخذت غير حقّك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمّد ﷺ ، فأتعس الله منكم الجدود ، وأصعر منكم الخدود ، حتّى ردّ الله الحقّ إلى أهله ، وكانت كلمة الله هي العليا ، ونبيّنا محمّد ﷺ هو المنصور على من ناواه ولو كره المشركون ، فكنّا أهل البيت أعظم النّاس في الدين حظّاً ونصيباً وقدراً ، حتّى قبض الله نبيّه ﷺ مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله ، مرضيّاً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون؛ يذبّحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عمّ سيّد المرسلين فيكم بعد نبيّنا بمنزلة هارون من موسى ، حيث يقول :

يابنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُوني وَكادوا يَقْتُلونَني ، ولم يجمع بعد رسول الله ﷺ لنا شمل ، ولم يسهل لنا وعر ، وغايتنا الجنّة ، وغايتكم النّار » .

وكان ابن العاص حاضراً فلسعه كلامها فاندفع قائلاً :

« أيّتها العجوز الضالّة ، اقصري من قولك ، وغضّي من طرفك » .

ـ ومن أنت لا أمّ لك ؟

ـ عمرو بن العاص .

ـ يابن اللخناء النابغة ، أتكلّمني ؟! أربع على ضلعك ، وأعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك ستّة من قريش كلّ واحد يزعم أنّه أبوك ، ولقد رأيت أمّك أيّام منى بمكّة مع كلّ عبد عاهر فأتمّ بهم فإنّك بهم أشبه .

والتفت لها مروان بن الحكم فقال لها :

« أيّتها العجوز الضالّة ، ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك » .

فانبرت إليه قائلة:

« يا بني أتتكلّم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنّك لشبهه في زرقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ، ولقد رأيت الحكم ماد القامة ، ظاهر الأمَة ، سبط الشعر ، وما بينكما من قرابة إلّاكقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب فاسأل أُمّك عمّا ذكرت لك ، فإنّها تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ».

ثمّ التفتت إلى معاوية فقالت له:

« والله ما عرضني لهؤلاء غيرك ، وإنّ أُمّك هند القائلة في يوم أُحد في قتل حمزة رحمة الله عليه:

نَحْنُ جزَيناكُمْ بِيَومِ بَدرِ ... والحَربُ يَومَ الحَربِ ذاتَ سُعرِ
ما كانَ عَنْ عُتْبَةَ لي مِنْ صَبْرِ ... أبي وعَمّي وأَخي وصِهْري
شَفيتَ وَحْشِيُّ غليلَ صَدْري ... شَفيتَ نَفسي وقَضيتَ نَذْري
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَيَّ عُمْري ... حَتّىٰ تَغيبَ أعْظُمي في قَبْري

فأجبتها:

يا بِنْتَ رَقّاعٍ عَظيمِ الكُفْرِ ... خُزيتِ في بَدْرٍ وغَيرِ بَدْرِ
صَبّحَكَ اللهُ قَبيلَ الفَجْرِ ... بالهاشِميّينَ الطِّوالِ الزُّهْرِ
بكُلِّ قَطّاعٍ حِسامٍ يَفري ... حَمزَةَ لَيْثي وَعَلِيّ صَقْري
إذْ رامَ شَيبٌ وأبوكِ غَدْري ... أعْطَيتِ وَحْشِيَّ ضَميرَ الصَّدرِ
هَنَّكَ وَحْشِيٌّ حِجابَ السِّتْرِ ... ما لِلبَغايا بَعدَها مِنْ فَخْرِ

فثار معاوية والتفت إلى ابن العاص ومروان قائلاً:

« ويلكما ! أنتما عرّضتماني لها ، وأسمعتماني ما أكره ».

ثمّ التفت إليها فقال لها:

« يا عمّة، اقصدي حاجتك، ودعي عنك أساطير النساء».

- « تأمر لي بألفي دينار، وألفي دينار، وألفي دينار».

- « ما تصنعين بألفي دينار؟

- « أشتري بها عيناً خرخارة، في أرض خوارة، تكون لولد الحارث بن عبدالمطّلب».

- « نعم الموضع وضعتها، فما تصنعين بألفي دينار؟».

- « أزوّج بها فتيان عبدالمطّلب من أكفائهم».

- « نعم الموضع وضعتها، فما تصنعين بألفي دينار».

- « أستعين بها على عسر المدينة، وزيارة بيت الله الحرام».

- « نعم الموضع وضعتها، هي لك، نعم وكرامة».

ثمّ التفت إليها بعد هذا العطاء الجزيل ليرى مدى إخلاصها لأمير المؤمنين قائلاً:

« أما والله لو كان عليّ ما أمر لك بها!!».

- « صدقت، إنّ عليّاً أدّى الأمانة، وعمل بأمر الله، وأخذ به، وأنت ضيّعت أمانتك، وخنت الله في ماله، فأعطيت مال الله من لا يستحقّه، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها وبيّنها فلم تأخذ بها، ودعانا عليّ إلى أخذ حقّنا الذي فرض الله لنا، فشغل بحربك عن وضع الأمور في مواضعها، وما سألتك من مالك شيئاً فتمنّ به، إنّما سألتك من حقّنا، ولا نرى أخذ شيء غير حقّنا، أتذكر عليّاً فضّ الله فاك وأجهد بلاءك؟

ثمّ بكت وقالت رائية لأمير المؤمنين عليه السلام:

ألا يا عَينُ وَيحَكِ أسعِدينا ألا وابكي أميرَ المؤمِنينا

رُزِينا خَيرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا وفارِسها وَمَنْ رَكِبَ السَّفينا
ومَنْ لَبِسَ النِّعالَ أَوِ احْتَذاها ومَنْ قَرأَ المَثانِيَ والمِئينا
إذا استَقْبَلتَ وجْهَ أبي حُسَينٍ رأَيْتَ البَدرَ راعَ النّاظرينا
وَلا وَاللهِ لا أنْسَى عَلِيّاً وَحُسْنَ صَلاتِهِ في الرّاكِعينا
أَفي الشَّهرِ الحَرام فَجَعْتُمونا بِخَيرِ النّاسِ طُرّاً أَجْمَعينا

فأمر لها معاوية بستّة آلاف دينار، فأخذتها وانصرفت[1]، وقد أراد معاوية بتكريمه لها استمالة قلبها وصرفها عن حبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وقد خاب سعيه، فإنّ من طبع على حبّ أمير المؤمنين والإخلاص إليه كيف يغيّره المال؟ وتقلّب عقيدته المادة، وقد فاهت بهذا الشعور الطيّب كريمة أبي الأسود الدؤلي، فقد بعث معاوية حلوى هدية إلى أبيها ليستميله عن حبّ أمير المؤمنين عليه السلام، فتناولت ابنته قطعة من تلك الحلوى ووضعتها في فمها، فقال لها أبوها:

«يا بنتي، ألقيها فإنّها سمّ؛ هذه حلواء أرسلها إلينا معاوية ليخدعنا عن أمير المؤمنين ويردّنا عن محبّة أهل البيت!!».

فلمّا سمعت بذلك انبرت إلى أبيها تعرب له عن شعورها الطيّب وعن مدى حبّها لأمير المؤمنين قائلة:

«قبّحه الله، يخدعنا عن السيّد المطهّر بالشهد المزعفر، تبّاً لمرسله وآكله!!».

ثمّ قامت ما أكلته وأنشأت تقول:

أَبا لِشَهْدِ المُزَعْفَرِ يابْنَ هِنْدٍ نَبيعَ عَلَيكَ أَحْساباً وَدينا
مَعاذَ اللهِ كَيفَ يَكونُ هذا وَمَولانا أَميرُ الْمُؤْمِنينا[2]

---

(١) بلاغات النساء: ٢٧. العقد الفريد: ٢١٩/١.
(٢) الكنى والألقاب: ٨/١.

عكرشة بنت الأطرش

وعكرشة بنت الأطرش سيّدة جليلة تعدّ في طليعة نساء العرب في شجاعتها، وقوّة بيانها، كانت في صفّين تدعو النّاس إلى نصرة الإمام ومناجزة عدوّه، ولمّا تمّ الأمر إلى معاوية وفدت عليه فسلّمت عليه بالخلافة، فتذكّر موقفها في صفّين، فقال لها:

«يا عكرشة، الآن صرت أمير المؤمنين؟».

فقالت له:

«نعم، إذ لا عليّ حيّ».

فلم يقتنع بذلك وأخذ يذكّرها بموقفها وخطبها في صفّين قائلاً:

«ألست صاحبة الكور المسدول، والوسيط المشدود، والمتقلّدة بحمائل السيف، وأنت واقفة بين الصفّين تقولين:

يا أيّها النّاس، عليكم أنفسكم، لا يضرُّكم من ضلّ إذا اهتديتم، إنّ الجنّة دار لا يرحل عنها من قطنها، ولا يحزن من سكنها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، كونوا قوماً مستبصرين، إنّ معاوية دلف إليكم بعجم العرب، غلف القلوب، لا يفقهون الإيمان، ولا يدرون ما الحكمة؟ دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه، فالله الله عباد الله في دين الله!! وإيّاكم والتواكل، فإنّ في ذلك نقض عروة الإسلام، وإطفاء نور الإيمان، وذهاب السنّة، وإظهار الباطل، هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى، قاتلوا يا معشر الأنصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأنّي بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة، والبغال الشحاجة، تضغم ضغم البقر، وتروث روث العتاق».

وبعد ما تلا معاوية عليها خطابها قال لها بشبرات تقطر غضباً:

« فوالله لولا قدر الله ، وما أحبّ أن يجعل لنا هذا الأمر لقد كان انكفأ عن العسكران فما حملك على ذلك ؟ » .

فقابلته بناعم القول قائلة :

« إنّ اللبيب إذا كره أمراً لم يحبّ إعادته » .

ـ « صدقت ، اذكري حاجتك » .

ـ « إنّ الله قد ردّ صدقاتنا علينا ، وردّ أموالنا فينا إلّا بحقّها ، وإنّا قد فقدنا ذلك ، فما ينعش لنا فقير ، ولا يجبر لنا كسير ، فإن كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة ، ولا استعمل الظالمين » .

فما أعتنى معاوية باسترحامها وقال لها :

« يا هذه ، إنّه تنوبنا أمور هي أوْلى بنا منكم ، من بحور تنبثق ، وثغور تنفتق » .

قالت : « يا سبحان الله ! ما فرض الله لنا حقّاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علّام الغيوب » .

ولم يجد حينئذٍ معاوية بدّاً من إجابتها فقال لها :

« هيهات يا أهل العراق ، فقّهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا » .

ثمّ أمر لها بقضاء حاجتها وردّها إلى أهلها[1] .

الدارميّة الحجونيّة

ومن سيّدات النساء وخيارهنّ الدارميّة الحجونيّة ، عرفت بالصلاح والنسك ، وبقوّة الحجّة ، وشدّة العارضة ، قد والت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولمّا تمّ الأمر إلى معاوية بعث خلفها ، وكان آنذاك في الحجاز ، فلمّا مثلت عنده قال لها :

---

(١) بلاغات النساء : ٧٠ . العقد الفريد : ١/٢١٥ .

«كيف حالك يا ابنة حام».

قالت: «بخير، ولست لحام، وإنما أنا امرأة من قريش من بني كنانة ثمت من بني أبيك».

قال: «صدقتِ، هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟».

قالت: «لا، يا سبحان الله! وأنّى لي بعلم ما لم أعلم؟».

ـ «بعثتُ إليك أن أسألك علام أحببت عليّاً عليه السلام وأبغضتيني؟ وعلام واليتيه وعاديتيني؟».

ـ «أوَ تعفيني من ذلك».

ـ «لا أعفيك، لذلك دعوتكِ».

ـ فأمّا إذ أبيت فإنّي أحببت علياً عليه السلام على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أوْلى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك، ووالیت علیاً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وآله من الولاية وحبّ المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وشقّك العصا».

فتأثّر ابن هند من مقالها وقال فاحشاً ومستهزئاً:

«صدقتِ فلذلك انتفخ بطنك، وكبر ثديك، وعظمت عجيزتك».

فردّت عليه مقالته بالمثل:

«يا هذا بهند والله يضرب المثل لا أنا».

ـ «لا تغضبي، فإنّا لم نقل إلّا خيراً، إنّه إن انتفخ بطن المرأة تمّ خلق ولدها، وإذا كبر ثديها حسن غذاء ولدها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها».

فهدأ روعها، وسكن غضبها، ثمّ التفت لها:

ـ «هل رأيت علياً؟».

ـ «إي والله لقد رأيتيه».

ـ «كيف رأيته ؟».

ـ «لم ينفخه الملك، ولم تصقله النعمة»[1].

ـ «هل سمعت كلامه ؟».

ـ «كان والله كلامه يجلو القلوب من العمى، كما يجلو الزيت صداء الطست».

ـ «صدقتِ، هل لك من حاجة ؟».

ـ «أوَ تفعل إذا سألتك».

ـ «نعم».

ـ «تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها».

ـ «ما تصنعين بها ؟».

ـ «أغذو بألبانها الصغار، وأستحني بها الكبار، واكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر».

ـ «فإن أعطيتك ذلك فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟».

ـ «سبحان الله !! أو دونه أو دونه».

فانبهر معاوية وقال:

«إذا لَمْ أَعدْ بالحِلْمِ مِنّي عَلَيكُمَ ... فَمَنْ ذا الَّذي بَعْدي يُؤَمِّلُ لِلْحِلْمِ

خُذيها هَنيئاً واذْكُري فِعْلَ ماجِدٍ ... جَزاكِ عَلىٰ حَرْبِ الْعَداوَةِ بِالسِّلْمِ

أما والله لو كان عليّ حيّاً ما أعطاك شيئاً».

---

(١) وفي العقد الفريد: «رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك».

ـ « لا والله ولا برة واحدة من مال المسلمين »[1]

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن بعض المآسي المروّعة التي أحاطت بالإمام في حياته وفي شيعته بعد وفاته ، انتقاماً منهم لولائهم للإمام ، وإخلاصهم في المودّة والمحبّة له .

(١) بلاغات النساء : ٧٢. العقد الفريد : ٢١٦/١. صبح الأعشى : ٢٥٩/١.

المحتويات

الإهداء ٥
التقديم ٩

وفاة النبيّ ﷺ ٢١
انقلاب المسلمين على الأعقاب ٢٢
مؤتمر السقيفة ٢٣
امتناع الإمام من بيعة أبي بكر ٢٣
إجراءات قاسية ٢٥
أوّلاً ـ الهجوم على دار الإمام ٢٥
إخراج الإمام ٢٩
حماية الزهراء عليها السلام للإمام ٣٠
ثانياً: الحرب الاقتصاديّة ٣٠
١ ـ إلغاء الخمس ٣١
٢ ـ تأميم ممتلكات النبيّ ﷺ ٣١
٣ ـ تأميم فدك ٣٢
رزيّته عليه السلام بفقد الزهراء عليها السلام ٣٣
اعتزاله النّاس ٣٥

الإمام عليه السلام في عهد عمر ٣٥
نظام الشورى ٣٧
أعضاء الشورى ٣٩
عمر مع أعضاء الشورى ٣٩
مع الزبير ٤٠
مع طلحة ٤٠
مع سعد بن أبي وقّاص ٤١
مع عبدالرحمن بن عوف ٤١
مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٤٢
مع عثمان بن عفّان ٤٤
عمر مهّد الحكم لعثمان ٤٥
الانتخاب ٤٦
انتخاب عثمان ٤٩
الإمام عليه السلام في عهد عثمان ٥١
مع عمّار ٥٥
الثورة على عثمان ٦٠
الإجهاز عليه ٦٢
حكومة الإمام ٦٣
وجوم القرشيّين ٦٨
في ظلّ حكومة الإمام ٦٨
إجراءات مهمّة ٦٩
مصادرة الأموال المنهوبة ٦٩
أموال عثمان ٦٩

عزل الولاة ٧٠
المساواة بين المسلمين ٧١
بسط العدل ٧١
الحريّات العامّة ٧٢
التمرّد على حكومة الإمام ٧٢
العصيان المسلّح ٧٣
مع طلحة والزبير ٧٥
الزحف إلى البصرة ٧٦
زحف الإمام إلى البصرة ٧٨
الدعوة إلى السلم ٧٩
قيادة عائشة للجيش ٨١
عقر الجمل ٨٣
الصفح عن عائشة ٨٤
العفو العامّ ٨٥
تسريح عائشة ٨٥
وقعة صفّين ٨٨
تمرّد معاوية ٨٩
زحف معاوية لصفّين ٩٠
مسير الإمام عليه السلام إلى صفّين ٩١
في رحاب صفّين ٩٢
الدعوة إلى السلم ٩٢
إعلان الحرب ٩٢
خطاب عمّار ٩٣

الحرب العامّة ٩٤
مصرع عمّار ٩٤
مهزلة رفع المصاحف ١٠٠
الفتنة الكبرى ١٠٢
انتخاب الأشعري ١٠٨
رجوع الإمام إلى الكوفة ١١٠
اجتماع الحكمين ١١٠
افتخار ابن العاص ١١٦
فرح الشاميّين ١١٧
رسالة ابن العاص لمعاوية ١١٨
مآسي الإمام ١١٩
تمرّد المارقين ١٢٠
قتالهم ١٢١
المحن الشاقّة ١٢٥
تفلّل جيشه ١٢٥
احتلال مصر ١٢٧
الغارات على الحجاز واليمن ١٢٨
الغارة على العراق ١٣١
١ ـ عين التمر ١٣١
٢ ـ هيت ١٣٢
٣ ـ واقصة ١٣٥
٤ ـ الغارة على الكوفة ١٣٥
عبث الخوارج ١٣٦

دعاء الإمام على نفسه ١٣٧
المأساة الخالدة ١٣٨
مؤتمر مكّة ١٣٩
الإمام مع ابن ملجم ١٤٠
ابن ملجم مع قطام ١٤١
اغتيال الإمام ١٤٣
ابن ملجم يصف ضربته للإمام ١٥١
إلقاء القبض على ابن ملجم ١٥١
بعض وصاياه ١٥٢
إلى جنّة المأوى ١٥٤
تجهيزه ودفنه ١٥٦
تأبين الإمام الحسن لأبيه ١٥٧
ملاحقة الإمام بعد وفاته ١٥٩
١ ـ سبّه على المنابر ١٥٩
منكرون وناقمون ١٦٤
ـ السيّدة أمّ سلمة ١٦٤
ـ الأحنف بن قيس ١٦٥
ـ سعد بن أبي وقّاص ١٦٦
ـ عبدالله بن عبّاس ١٦٧
ـ ابن عبّاس ومعاوية ١٦٨
ـ زيد بن أرقم ١٧٠
ـ أبو بكرة ١٧٠
ـ أنيس الأنصاري ١٧١

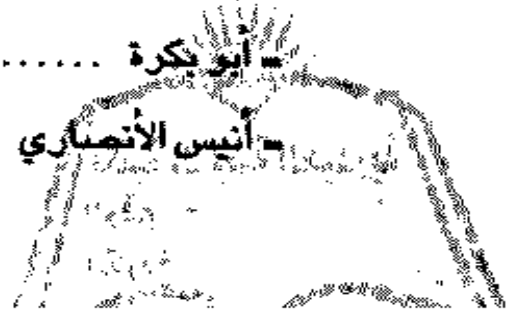

- عبيدالله بن كثير السمعي ١٧١

٢ ـ اضطهاد الشيعة ١٧٢

٣ ـ التصفية الجسديّة لأصحاب الإمام ١٧٥

حجر بن عدي ١٧٥

في مرج عذراء ١٧٩

عبدالرحمن العنزي ١٨٠

رشيد الهجري ١٨٢

عمرو بن الحمق الخزاعي ١٨٣

عبدالله الحضرمي وجماعته ١٨٦

٤ ـ ترويع نساء الشيعة ١٨٦

- الزرقاء بنت عدي ١٨٧

- أمّ الخير البارقيّة ١٨٩

- سودة بنت عمارة ١٩٢

- أمّ البراء بنت صفوان ١٩٥

- بكارة الهلاليّة ١٩٧

- أروى بنت الحارث ١٩٨

- عكرشة بنت الأطرش ٢٠٣

- الدارميّة الحجونيّة ٢٠٤

المحتويات ٢٠٩

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٣٢٠٢٩
التاريخ /

قد روى الحاكم في المستدرك ١٤٢/٣... عن حيان الأسدي سمعت علياً يقول قال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إنّ الأمة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على ملّتي وتقتل على سنتي، من أحبك أحبني ومن أبغضك أبغضني، وإن هذه ستخضب من هذا، يعني لحيته من رأسه».

دار جواد الأئمة عليه السلام

بيروت - لبنان: ٠٣/١٣٧٣٧٣